فيكتور هوكو

وعلم الادب عند الافرنج والعرب

١

أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة من الكلام المنظوم والمنثور . ويشتمل على فنون الشعر والاغاني والروايات والقصص وضروب الامثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك . وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الادب المطبوع في بيروت . والاصل في الكلام للمعاني لا للالفاظ . لان اللفظ قالب أو ظرف للمعنى يتخذهُ المتكلم أو الكاتب لسبك ما يصوّره في نفسه و يشكله في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارىء حتى يعلمه كأنه يشاهده . قال الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى « الفصاحة » و « البيان » لان المتكلم يفصح عما في ضميره و يبينه بكلمات عذبة سلسة و بعبارات جلية خفيفة على القلب واللسان . فالمتكلم على هذا النسق « فصيح » وكلامه ملفوظاً كان أو مكتوباً « كلام فصيح » . وحيث كان المعنى سابقاً للفظ وجب أن تكون الالفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها . وليس المعنى تابعاً للفظ كما حكي عن بعض الامراء انه ولى أحدهم قضاء « قُمْ » وهي من مدن العراق العجمي بين طهران وكاشان ثم كتب اليه بلا سبب موجب « أيها القاضي بقم قد عزلناك بقم » يعني بلفظ « قم » . فقال القاضي والله ما عزلني الاَّ محبة الامير في التزام السجع . ولا يكمل علم الادب للمتبحر فيه الاَّ بعد أن ينظر في أدب الامم المتمدنة ولو نظرةً عامةً يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم . فيقف

على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين طرق المتقدمين والمتأخرين منهم

فاذا أحاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه ائمة البلاغة من أي لسان وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم اصابته فيصوب نحوه القلم عسى أن يكون له مع الخواطئ سهم صائب . لأن البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده . وكلما ارتقت الامة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع واكمل لتهافت أدبائها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدريج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم وأجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشئ من ضيق العمران وقلة العلوم ويفرغون ما أوجدوه وما أصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الالفاظ والتراكيب . « فالبلاغة » هي مطابقة اللفظ المعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام . وفي المثل لكل مقام مقال . سواء كان المقال أي اللفظ عربياً فصيحاً باعراب أو حضريا بلا اعراب أو اعجمياً بأن كان عثمانياً (١) أو انكليزياً أو فرنساوياً أو فارسياً . أو غير ذلك . فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى التركيب المفيد لمقصوده على أساليب العرب وانحاء مخاطباتهم . وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسر له . فاذا لازم قراءة الطبقة العالية من كلام العرب الاقدمين حصلت له ملكة فيه وسهل عليه التركيب على أسلوبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحي نبا عنه سمعه . واذا كثر اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت أساليبه أعجمية مع بقاء الالفاظ في كلامه عربية . كما يتضح لمن أمعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في أوربا ومنها ما طبع في مصر . وفي رسائل غيره من فلاسفة الاسلام وأهل المنطق . فانه يرى فيها الاساليب

(١) اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس «اللسان التركي» ويتألف من ثلاث لغات احداها لسان جغتاى وهو أصل اللسان التركي . وثانيها اللسان العربي وثالثها الفارسي . وأول من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الاصلاح هو جودت باشا المؤرخ الشهير

الاعجمية واللهجة التي لم يلهجها أدباء الجاهلية

وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين : الاولى تشمل حركات الاعراب في اواخر الكلم وكيفية تركيب الالفاظ . فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على تعيين الفاعل او المفعول . وأما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات فيدل على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد . وخواص التركيب هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الاحوال من التأكيد والتعريف والتنكير مثل تقديم لفظ أو تأخيره لوصف المعنى وتكييفه ومثل زيادة حرف أو تنقيصه لزيادة شيء في المعنى الاصلي لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا زيد قائم وان زيداً قائم وان زيداً لقائم . وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الاولى « إنا اليكم مرسلون » وفي المرة الثانية « ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون » فالالفاظ بأعيانها تدل على المعاني بأعيانها في كل لسان . وخواص التركيب في لغة مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الاحوال المكتنفة بذلك المعنى . وأما في لغة الحضر وفي الالسن الاعجمية فأكثر ما يدل على هذه الاحوال بألفاظ وكلمات مخصوصة . ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل الفاظاً وعبارة من غيره . ولهذا أشار نبينا محمد عليه السلام بقوله « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا » على ان بقية الالسن لم تخل بالكلية من هذه الخاصة الاولى للسان مضر وحركات الاعراب موجود منها في اللسان العثماني تقول « زيد كلدى » بسكون آخر زيد ومعناه جاء زيد . و « زيدي جلب ايتدم » بكسر آخر زيد ومعناه جلبت زيداً . وان لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى . وأما في لغات أوربا فالاعراب من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الالمانية . غير ان هذه الخاصة ربما كانت في لسان مضر اكثر وأعرف وأثبت . واذا لم يراع الانسان هذه الخاصة في اللسان الذي يتكلمه وقع لهُ ما وقع للوليد مع الاعرابي . وذلك ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان الثاً وكان أبوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن ابنه وقال لهُ انك يا بنيَّ لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت

وجعل معه من يعلمه الاعراب فمكث كذلك مدة ثم خرج وهو أجهل مما دخل فلما بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه أعرابي يشكو صهراً له

فقال الوليد : — ما شانك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : — أعوذ بالله من الشين

فقال له سليمان بن عبدالملك : — أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك (بضم النون)

فقال الاعرابي : — ختني ظلمني

فقال الوليد : — من ختنك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : — انما ختنني الحجام ولست أريد هذا

فقال سليمان بن عبد الملك : — أمير المؤمنين يقول من ختنك (بالضم)

فقال : — هذا . وأشار الى خصمه

والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات وأنواع البديع من الكلام وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل « اشتعل الرأس شيباً » ومنه في الشعر كقول ابن المعتز « والشمس كالمرآة في كف الاشل » فجميع ذلك أتم وأكمل في لسان العرب . ويعدون من الكلام البديع لفيكتور هوكو تشبيهه موج البحر بقطيع الغنم وقوله غنم البحر . وقول كمال بك امام الادب في اللسان العثماني « برق الحقيقة يلمع من تصادم الافكار » . فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب . وفي كلامهم كثير من البديع أتوا به بغير تكلف ولا تعمل . وبعضهم تصنع له وتكلف ظنا بأنه أساس البلاغة والمقصود منها بالذات فملاوا بالبديع والاستعارات النظم والنثر وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا

مودته تدوم لكل هولٍ وهل كل مودته تدومُ

وتغافلوا عن ايضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجليلة التي أوضحها أدباء اليونان والرومان والافرنج فيما ألفوه من الروايات المضحكة أو الفاجعة وعرضوه في المراسح على انظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام

على ان تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية وان كان لها تأثير عظيم على

النفس فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس . فالعاقل يجتهد بأن تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والادب والكمال فان وُجد معها شيء من الحلي فنعم . والا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها . فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا ونلبسها ما عندنا من اللباس ونتمتع بها فهذا أولى من الباس الجارية السوداء الحلي والحلل وصرف النقد والوقت في تزيينها . وللناس فيما يعشقون مذاهب

فالتكلف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع او سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني ليس فيه كبير فائدة مادام الاصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه ولاندري بأي عبارة نترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الوسط الذي نحن فيه وهو سجن لنا . والدنيا سجن المؤمن . فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع من الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً . وأمثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب الصبيانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه . وخير اللفظ ماجاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولاتحر في القواميس والمنشآت . فخطبة ناظر المعارف الفرنساوية الذي تلاها بمناسبة يوبيل الكيماوي برتلو هي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وايجاب المصلحة وهي من أحسن مايقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع . غير ان ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة . فان الالفاظ وان كانت عربية فتركيب هذه الالفاظ بعضها مع بعض لم يجر على اسلوب قس بن ساعدة او سحبان وائل ولا على طريقة الجاحظ امام الادب ولا يشبه رسائل عبد الحميد أو ابن العميد اللذين قال فيهما الثعالبي : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد » بل جرى تركيب الفاظ تلك الخطبة على أسلوب الفرنساوي المترجمة عنه . فأكثر الالفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الاولون . والركاكة بالنظر الى

التراكيب . وربما كانت بالنظر الى بعض المفردات أيضاً لان مفردات الفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة هذا اللسان كالذي الفه الزمخشري وسماه أساس البلاغة وطبع بمصر

ثم هناك أسباب أخرى أيضاً تحول بيننا وبين ادراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم وعلى مزايا لغتهم وتعبيراتهم وفقداننا الملكة في هذا الاسلوب من الخطابة . ولذا ينبو سمعنا عما لم يأت على أساليب بلغاء العرب وعما لم يجر على وفق مذاهبهم في فنون الادب . حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف . بل كل امام في الادب من اي امة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم . ولذا فاهل الذوق في الكلام اذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان وأسلوب فلان وهو من انشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمور بوردو على أهل الذوق المشهورين باسم « ديكوستاتور » لقبض الواحد منهم بكفه على الزجاجة حتى اذا سخنت بحرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بوكه) هزّها ونظر فيها فاذا الخمر في الزجاجة ياقوتة سيالة ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك هي من كرم « شاتولافيت » او « شاتولاتور » او « شاتومارغو » وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة العليا من طبقات الخمر المعصور بارض « ميدوق » واتفق أهل الذوق والطب على انها من أطيب البقاع وابركها لانبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس واثمه اكبر من نفعه . لانه من جهة ترياق نافع ومن أخرى سم ضار

٣

والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل لسان من السن الامم المتمدنة والهمجية فان لأهالي افريقية أشعاراً يمدحون بها على آلات طربهم ويرقصون على أنغامها . وكان في الامم السالفة شعراء مجيدون مثل فياسه صاحب ديوان ماهابهاراته ومثل فالميكى صاحب ديوان رامايانه وهما من شعراء الهند وكهنتها نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة وترجمهما العلماء

في زماننا الى اكثر اللغات الاوروبية فوجدوا أشعارهما حماسية دينية . ففي الديوان الاول نحو مئتي الف بيت أو قبلها . وهما عند الهنود بمثابة ما عند اليونان من الالياذه والاوذيسة نظم هوميروس الشاعر الشهير . ولعل البستاني يتحفنا بنشر ما جناه من أدبه[1] فان هوميروس شيخ الشعراء بأجمعهم . ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية وما حولها من أرض الروم قبل ان يفتحها الفاتح . وشعراء الرومان اللاتينيين وشعراء الفرس وامامهم الحسن بن اسحاق الفردوسي ناظم الشهنامه في القرن الرابع للهجرة وهو عند العجم كهوميروس عند اليونان وفرجيل عند الرومان ودانتي عند الطليان وميلتون عند الانكليز . وتشتمل الشهنامه على تاريخ أكاسرة الفرس وأخبارهم وقد طبعت مرارًا في الفارسية وترجمت للانكليزية والفرنساوية . وترجمها نثرًا للعربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة أحد الملوك الايوبية

ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين « ان الفارسي سئل فقيل له ما البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل[2] وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة . وسئل الهندي عنها فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول »

وفي الامم الأوروبية والاميركية اليوم شعراء أعلى طبقة وابلغ كلامًا ممن تقدمهم من شعراء الامم السالفة . وموازين الشعر في جميع اللغات على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن . والشعر الفرنساوي تبنى اعاريضه على عدد الهجاء فالبحر الاسكندري (الكساندرين) على اثني عشر هجاء في الاصل . والروي أي القافية — وهو الحرف الاخير من كل بيت — موجود في لسان العرب وفي السن غيرهم . ولكن

---

(١) « الهلال » ان الالياذة نظم سليمان افندي البستاني تحت الطبع الآن في مطبعة الهلال

(٢) الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه

الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لاشعارهم روي ولا قواف فأخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله . فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فكتور هوكو في علم الادب وشرح أساليبه في النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من أخبار العرب ليتبين لنا التأثير الذي أثره أدبهم على أشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور هوكو بوجه الخصوص . لان هذا الشاعر الحكيم نُفح بنفحة من النفس الاندلسي واغتذى بلبان من ارتضع قديماً ثدي الادب العربي . وبيان ذلك ان مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو دخلت في حوزة الاسلام حينما قطع أهله جبال البيرينه وأغاروا على مملكة اكيتانيا وليون وفتحوا ما في شمالها من المدن مثل ماقون وديجون . ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارلكان صاحب الوقائع الشهيره مع فرانسوا الاول ملك الفرنساويين ومع معاهده وحاميه السلطان سليمان القانوني وذلك في القرن السادس عشر للميلاد . فنقل الامبراطور شارلكن عائلات كثيرة من الاسبان وانزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا بأهلها ولم يزل لاهل بيزانسون شبه بالاسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات والتعبيرات مع ان مدينتهم لا تبعد عن باريس اكثر من أربعمئة كيلومتر . وقد أشار فيكتور هوكو الى ذلك في القصيدة الأُولى من ديوان اوراق الخريف ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الاسبانية فذهبت مثلاً وصار الكتاب لا يفترون عن وصفها بهذا الوصف . وعلاقة الاسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج الى ايضاح

٣

أما العرب فلو نظرنا الى تاريخ أدبهم لوجدنا في مقدمته أشعار الحماسة كما نجد ذلك عند بقية الامم كالفرنساويين مثلاً فان النظم في لسان أدبهم دوّن قبل النثر . لان النظم يحصل التأنق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم أطراف الكلام وحواشيه ويكون في بادىء الامر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على الالسنة . ثم تزيد العناية به فيدون بالنقش أو الكتابة ويعلق على الجدران . وهذا

معنى قولهم النظم في تاريخ الادب سابق للنثر . والاَّ فأول ما يبدأ من الكلام بالنثر لقرب تناوله وسهولة استعماله . ذكر الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر ان العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه الى الشعر وكان عثورهم عليه في الاصل بالاتفاق غير مقصود اليه . فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الاسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعلموه وتكلفوا له . فنبغ فيهم الشعراء وأقبل الناس رجالاً ونساء على حفظ أشعارهم ورواية أخبارهم والتفاخر بانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من أبياتها عند الحاجة . فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم وأخبارهم وحكمهم وشاهد صرايهم وخطائهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة الامام العالم الذي يهتدى بنبراس قريحته ويفزع لرأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله أمضى من السيف واحدّ من السنان وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء . وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة اوهدمه . كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد ان كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل . وكان السجع من الكلام يجري على السنة الكهان والحكماء والعرافين واهل الزجر [1] والفال وأنواع الحكم والطب مثل شق وسطيح وحنظلة بن صفوان كاهن حمير وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة « قل هو الله أحد » كان أبي يقرأ مثل هـذا . وأميه بن أبي الصلت الثقفي وكان افتتاح كلامه « باسمك اللهم » وقس بن ساعدة ورباح بن عجلة عراف اليمامة والابلق الاسدي عراف نجد وغيرهم

غير ان تاريخ أدب العرب قبل الاسلام لم يزل في حيز الخفاء لعدم تمكن العلماء من درس اللغات او اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير مثلاً فانه لم يشتهر عندنا من قواعدها أكثر من حديث « ليس من امبر امصيام في امسفر » حيث استعمل فيه (ام) عوضاً عن (ال) التعريف . ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الادب الا بعد استخراج ما في أرض اليمن من الالواح التي تدعى بالمسند الحميري

(١) وهم صنف من المتكلمين بالغيب يزجرون انفسهم في مسموع او مرئي كسنوح طائر او حيوان ويفكرون فيه بعد مغيبه

وما في خرائب مدائن صالح وأرض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لاصحابها نصيب من الحضارة وكان لادبهم تأثير على أدب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشرقي الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . ولعل التثبث باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فممن عرفتُ من أولئك المستشرقين ايدوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من أرض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة بأحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهو يتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحمير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو يلقي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المسندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها مافي متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ . ومن المشتغلين باللسان الحميري هاليفي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع اهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترة وايطاليا ايضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي ولمناسبةٍ بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الاولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء ان يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد — وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد — وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانقال الموجودة

لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة و يلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغه مضر . الاّ ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة اي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر » آه

فأخذ ذلك المستشرقون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء أحكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنساوي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة الالسن الشرقية في باريس كما تدرس ايضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العامية — بالنظر الى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين أمم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد العجم والهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذ تفريق لسان أمة كبيرة الى السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا و بغداد والموصل والزنجبار والهنزوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه الالسن التي يراد وضعها كما تدون الالسن الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقية

وأنا نجد اللغة الفرنساوية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في

جبال البيرينه وأوفيرنيه وفي الايالات الغربية والجنوبية من أراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيهما . وانتهى بهم التعصب الى محو ما كتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البيرينه من جهة المحيط مع ان المتكلمين بها يفتخرون بقدمهم على سائر الامم الاوروبية . فكيف يصوغ اذاً تدوين لغة الجزائر ؟ وأهلها لا يتعذر عليهم فهم (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الاصلية من وقوف وبكاء وذكر وحب ونزول واذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالقصور ناشئ من الجهل بالجغرافية لا بأصل اللغة التي لم يزل لهم بأصولها وموادها ملكة راسخة . فان سقط اللوى . والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة المذكورة في قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

هي اماكن معروفة عند أهل الحجاز كما ان مقرة ومقطع الحديد من الاماكن المعروفة عند أهل الجزائر لشهرتها باستخراج معدن الحديد . فبدلاً من تدوين لغة الجزائر العامية كما دونت لغة حوصه ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والاجبار على تعليمها في المدارس للاطفال — لو سعى اهل العلم وأرباب القلم في التقرب من لغة مضر المدونة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنساوية وهذبوها من الجناسات والتشابيه الغامضة واختاروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب واصلحوا املاءها وكتابة أسماء الاعلام فيها لكان فعلهم على ما نظن اسهل وأنجح من تدوين لسان عامي بل ألسن همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها . مع ان ازدياد وسائط النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاط بعضهم ببعض . وعما قريب سيتم مد الخطوط الحديدية ويصبح السفر من مراكش الى بغداد والهند أو الى الحجاز أسهل مما كان قبلاً بين مصر القاهرة والاسكندرية . فلا يحتاج المسافر الى استصحاب كتاب (جامع اللغات) ليعلم منه ألسن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد والحجاز . أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالترقي

ونجد لمطبوعات مصر رواجاً في تونس والجزائر ولا بد ان تمتد يوماً على عموم سكان القارة الافريقية

أما لغة مضر فبدون ان نقف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على الاطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للاسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على أنواع التشبيه والاستعارة والبديع وا كثرها حماسية وفيها من التصورات البديعية والتخيلات الشعرية واللطف والرقة والادب مايدلنا على ان اللغة لم تكن اذ ذاك في عهد الطفولية فان الفرق بين أشعار المعلقات وبين اشعار (الترو بادور) الفرنساوية عظيم . لما في الاخيرة من الخشونة وعدم الرقة . واذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحي حسبته أديباً من أدباء باريس ...

ونجد للعرب قبل الاسلام انواعاً كثيرة من فنون الادب والشعر منها القصيد والرجز والاغاني ومنها ماينشد في الحرب على الدفوف . ومنها مايحدى به للعيس او يغنى به للرقص وتسكيت الاطفال ومنها السجع والترسل والخطب والرسائل وضروب الامثال والحكم . والحاصل كانت فنون أدبهم أتقن من ميعشتهم البدوية . وكان لهم موتمر وا كاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة . وكانوا يقيمون لذلك المواسم والاعياد فيجتمعون أولاً في سوق عكاظ وهو واد بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه الى سوق مجنة ثم الى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة . ثم يذهبون في ذي الحجة الى البيت الحرام موضع حجهم . فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالآداب والحكم ويقفون بهذه الاسواق لانشاد الشعر والقاء الخطب . فاذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لاكبر الشعراء في عصره كالنابغة الذبياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلاً وعرضوا عليه انفس أشعارهم . وقام الحارث بن حلزة يتبختر بين الجموع بتبختر الجاهلية ويقول :

آذنتنا ببينها اسماء رب ناء يمل منه النواء

بعد عهد لها ببرقة سمرا ء فأدنى ديارها الخلصاء

حتى يأتي على آخر همزيته فيحكم في مقاله أولو الذوق الصحيح والطبع السليم ويميزون فيه بين الغث والسمين ويقابلونه بغيره من كلام المعلقات . ثم وقف قس بن ساعدة على بعير له أحمر وقال « أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا سمعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا . واذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات فات وكل ماهو آت آت » فيكون الناس قد اجتمعوا حوله فيبدأ لهم في الخطبة بقوله « أما بعد . . . الخ » كأنه خطيب فرنساوي بل انكليزي يخطب في هايدبارك

وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور وراوية يروي له الاشعار . فكانت الرواة في ايامهم كالجرائد في يومنا ولذا كانت الاشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع القبائل في جزيرة العرب . وانتهوا في العصر السابق للهجرة الى المناغاة في كتابة قصائدهم بالذهب وتعليقها بأركان الكعبة كما فعل أصحاب المعلقات السبع وهم :

(١) أمرؤ القيس واسمه جندح بن حجر الكندي وكان أبوه يملك في جهة الحيرة على بني أسد ويضرب المثل في شهرة معلقته فيقال (أشهر من قفانبك) وله غيرها ديوان مشروح ومطبوع ومترجم الى اللغات الاوروبية ويقال ان أحسن ما في شعره وصفهُ الفرس [1] ولذا ضرب المثل بامرئ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب . وقيل ان امرء القيس توفي سنة ٥٤٠ م وكان مغرماً باللهو والزهو والخمر والنساء وكلامه في المعلقة منادمة ومداعبة . ومدح في شعره تغلب على بكر

(٢) طرفه بن العبد وديوانه ترجم للفرنساوية في الصوربون وطبعه الموسيو سليغصون (Seligsohn) ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش

(٣) عمرو بن كلثوم و (٤) الحارث بن حلزة اليشكري من قبيلة بكر بن وائل وله ديوان وفي معلقته الهمزية وفي معلقة عمرو المذكور خبر حرب البسوس التي وقعت

---

(١) بقوله :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكلِ
مكرٍّ مفرٍّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من علِ
لهُ ايطلا ظبي وساقا نعامةٍ وارخاء سرحان وتقريب تتفلِ

بين بكر وتغلب (٥) زهير بن أبي سلمى و(٦) عنترة بن شداد وفي معلقتيهما ذكر حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان . وقصة عنتر الشهيرة المطبوعة في بيروت ومصر ترجمها سابقاً للالمانية المستشرق النمساوي همر (Hammer) صاحب تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الادب العثماني وتاريخ الادب العربي . ثم ترجم شيئاً من قصة عنتر للفرنساوية مارسل ديفيك (Devic) معلم العربية في كليه مون بيليه وهي من أقدم مدارس الافرنج . وكان اطباء العرب واليهود المستعربون يدرسون فيها الطب

(٧) لبيد بن ربيعة العامري القائل « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وفي كلامه كثير من الحكم ووصف في أشعاره اخلاق عرب البادية وأطوارهم وعوائدهم ولهُ غير المعلقة ديوان أشعار طبع منه الجزء الاول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي سنة ١٨٨٠ وجعل له مقدمة وشرحاً فنرجو منه اتمامه

وظهر من فطاحل الشعراء غير من ذكر النابغة الذبياني وطبع ديوانه الاستاذ هارتوانغ دير بنورغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩ وفسره وحشاه . ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع أشعاره غضبان افندي وطبعها في لوندره وسماها ديوان حاتم طي . ومنهم دريد بن الصمة والشنفرى الازدي والاعشي الاكبر وتأبط شرا وكثير غيرهم . يحكى عن حماد الراوية انه انشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل قافية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً وفيها ماير بو على المئة بيت . فمهما بالغ الحاكي لا تنكر كثرة ما قرض من الشعر على عهد الجاهلية . ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الامثال التي نقلت عنهم ودونت في المجاميع

وسمي كلام هذه الطبقة من الادباء « كلام الجاهلية » لجهلهم بما جاء به الاسلام والاّ فهم أئمة في الادب يقتدى بهم . ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً نسجوا عليه مثله وقالباً افرغوا فيه شبهه من الالفاظ والتراكيب . ولم يزل الادباء على ذلك الى يومنا هذا كما فعل أصحاب « عكاظ الادب » المطبوع في الاستانة عقب الحرب

اليونانية الاخيرة . واذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف وصوروها أكمل تصوير بالنسبة لحالتهم البدوية ولصحاريهم الرملية فميزوا بين أنواع الرمل وسموا كل نوع باسم مخصوص مثل (الخفف) وهو الرمل المنفرج و (العقنقل) الرمل المنعقد الداخل بعضه في بعض و (البطن) من الارض و (الخبت) من الارض كل ذلك من أشكال الارض المختلفة كما قال امرؤ القيس في معلقته

فقمت بها أمشي تجر وراءنا على أثرنا أذيال مرط مرجل

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

والمرط نوع من أثوابهم يقال لو شبه الترجيل حسب (مودة) ذاك الزمان فوصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة ونطقوا بما شعروا به في قلوبهم ووجدوه في انفسهم من التأثر الحسي وان ذكروا بعيرًا أو فرسًا لم يتركوا شكلاً الا شرحوه شرحًا مفصلاً . فحيث كانت الفصاحة هي الاقتدار على الابانه عن المعاني الكامنة في النفوس كانت غاية الاديب منهم اثبات اقتداره على ايراد صور مختلفة للشيء الواحد واظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة . وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات، « ليل داج وسماء ذات ابراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وانهار مجراة الخ» ولهم أساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر التغيرات الجوية وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والاشجار ومنابت العشب الى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومعروف

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام انما كانت نوابغ الكلم تتفق لهم اتفاقًا وتطرد في كلامهم اطرادًا بخلاف من أتى بعدهم فانهم صنفوا المحاسن البديعة تصنيفًا وتحروا عليها . ومع ذلك فالبليغ من الكلام لم يصدر من افواه الجاهلية الاَّ بعد التروي والتصنع والتنقيح والتهذيب وقد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم وكان زهير يسمي كبير شعره الحوليات المنقحة

وقال عدي بن الرقاع

وقصيدة قد بت أجمع بيتها حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وقال سويد بن كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعا

وسموا زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . قال الباقلاني « وكانت العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كانه على وزن (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل) ويسمون ذلك الوضع الميتر واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته » . والفرنساويون يسمون العروض ميتر وميتريك ويقولون انه مشتق من معنى القياس باليونانية وله دروس مخصوصة وأساتذة في الصوربون . والف في العروض العربي المستشرق استانسلاي كوبار معلم العربية في (كلية فرانسا) عدة رسائل واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها الجائزة وثناء العموم . وعبر العرب عن قول الشعر ونظمه بالقرض وعن الشعر بالقريض . ومعنى القرض القطع لان الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة . وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعر وسجع لان تأثيره في النفوس أشد لما يحدثه من النغمة التي تطرب لها الاذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم أي المسبوك تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه . ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى . ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع . ثم الى معدل موزون غير مسجع . ثم الى مايرسل ارسالاً وتطلب فيه الاصابة والافادة وأفهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف . وهذا القسم الاخير شبيه بالكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . بخلاف القصيد من الشعر فانه يلتزم فيه قافية واحدة الى آخر الكلام ويشترط ان يكون كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح او غزل أو رثاء او هجاء او حماسة . والرجز ضرب من الشعر ولو لم يلتزم فيه ان يكون على قافية

واحدة . والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ويدمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء . والمتفنى قد انتصر له في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندره والف فيه رواية باللسان التركي على الطرز الجديد . وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام ارسالاً بدون تقييد بقافية او سجع او وزن او شيء ما بل يطلق اطلاقاً . ويتأتى في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة مالا يتأتى في السجع ولا في الشعر لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع او القافية . وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على قواعده . ومن يلتزم في كلامه السجع او الوزن أو القافية فهو يلفق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ويعبره بذلك القدر من التزيين بالاسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزينه بقية الصنائع البديعية ويغفل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني . فلما سلك الشعراء في الجاهلية حفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون » قال الباقلاني « فأخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف أطاعهم والمعاني كيف تتبع الفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب » . ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب الى النبي عليه السلام وكلموه في هذا الشأن ولفقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحجة الدافعة والبرهان القاطع فقالوا :

— كيف ندي من لا اكل ولا شرب ولا صاح فاستهل اليس دمه قد بطل

فقال : — اسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ اسجعاً كسجع الكهان ؟

نعم ان الشعر اذا تهذب ووفي له بجميع الاسباب لم يقارب من كلام الادميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب . ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد الاّ في بعض الابيات سيما في الشعر العربي حيث ضيق فيه النطاق على الشعراء والزموا باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الافرنج . على ان اكثر فحول الادب في البلاد المتمدنة صارفون عنايتهم في يومنا الى النثر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوكو في آخر عمره وكما يفعل اليوم

اميل زولا وغيره مثل تولستوي اديب الروس

ثم ظهر الاسلام وجاء القرآن بافصح لفظ وأبلغ معنى على أسلوب جديد يخالف أساليب العرب في النظم والنثر فلا هو مرسل ولا مسجع بل تفصيل ايات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى من غير التزام حرف يكون سجعا أوقافية وسميت آخر الايات فواصل لانها ليست اسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولاهي أيضاً قواف . ووقع اللفظ في القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من انواع بلاغتهم . لان الواحد منهم ان برع في فن من فنون النظم أوالنثر قصر فيما دونه والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الافادة واشتمل على قصص وأخبار وشرائع وأحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وأمثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول ادارية وسياسية وغير ذلك مما لم يحط بنصفه بل ولا بربعه اديب من الادباء ولا شاعر من الشعراء . وناضل عن الحرية وخفف أذى العبودية وندد بالظلمة وتوعدهم بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم فقال في الوعيد « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » وبين استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية ايقاعهم التفرقة بين رعاياهم ثم ايصال الجور والاذى اليهم فرقة بعد أخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر ونمارذة بابل وقياصرة الرومان والروم واكاسرة الفرس فقال في تصوير هذا الاستبداد :

« ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

قال الباقلاني [1] « ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء

(١) اعجاز القرآن

واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما لان النفوس لا تطمئن على هـذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظلم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده تخليصهم وجعلهم مستقلين بأمرهم وارثين لارضهم » ومما ورد في القرآن الكريم في السياسة والمناسبات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها اذذاك أورشليم و بين مملكة سباء وعاصمتها مأرب وما كتب به سليمان بن داوود عليهما السلام الى بلقيس وما اشتغلت به من التدبير والمشورة واستطلاع عواقب الامور وارسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائط الديبلوماتية الى غير ذلك ما نصه : (١)

قال — اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون

قالت — يا أيها الملأ اني القي اليّ كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين

قالت — يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون

قالوا — نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين

قالت — ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان

قال — اتمدونني بمال فما أتاني الله خير مما أتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون — الى آخر القصة — وترى فيها مجيء أهل سباء مسلمين الى أورشليم والاحتفال باستقبالهم . وارائتهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما أتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش لملكتهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . واصطناعهم لها صرحا يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشىء في معرض باريس الاخير . وقيل لها ادخلي الصرح فلما

(١) سورة النمل . والذي قال هو سليمان عليه السلام وقالت هي بلقيس وقالوا هم رجال دولتها واعيان بلادها

رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير .... قال الباقلاني — وهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الاشعري المعروف بابن الباقلاني وكان ملك الاسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه ارسله سنة ٣٧١ هـ سفيراً الى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكدونيا وكانت السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه — قال : « متى تهيأ للآدمي ان يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية « الا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » . والخلوص من ذلك الى ماصارت اليه بلقيس من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة . ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها « يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » . وذكر قولهم « قالوا نحن اولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا تجد في صفتهم انفسهم ابدع مما وصفهم به وقوله « الامر اليك » تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله « فانظري ماذا تأمرين » ثم الى هذا الاقتصار والى البيان مع الايجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه . وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام .... فما يجب فيه من شروط الاحكام كله أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام . ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة . أو مدخلاً في باب السياسة . او مصفوفاً في طريق السيادة . او مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى . أو جيد البلاغة مستجلب المعنى . او مستجلب البلاغة جيد المعنى او مستنكر اللفظ وحشي العبارة . او مستبهم الجانب مستكره الوضع . وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط افاد واذا اختصر كمل في بابه وجاد واذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في أطرافه عيون

مباحثه لم يقع الاّ على محاسن تتوالى وبدائع تترى . ثم فكر بعد ذلك في آية آية او كلمة كلمة في قوله « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصله وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكن بينت لك ما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه رميت والسمت الذي اليه دعوت ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الايات القصيرة والطويلة والمتوسطة فاجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقضِ ما انت قاض وان طال عليك تامل الجميع فاقتضر على سورة واحدة اوعلى بعض سور . ما رأيك في قوله « ان فرعون علا في الارض . وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى . وسلاستها وماؤها على ما تشاهد . ورونقها على ما تعاين . وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الارض . . . . الخ » اه

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في « الانتقاد الادبي » [1] الذي له المقام الاسمى بين علوم الادب . وللافرنج فيه عناية زائدة وجرائدهم تنشر فيه المقالات الضافية . ولجريدة الطان محرر ماهر في « الانتقاد الادبي » وهو « غاستون ديشان » واذا امعنا النظر في القرآن الكريم نجده مملوءًا بالمحاسن والبلاغة ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه . والا تأمل قوله « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الادب والعلم والسياسة والحرية الفرنساوية . وما

(1) Critiques littéraires

ادراك ما الحرية الفرنساوية — هي الحرية التي انقذت امماً كثيرة من الظلم الاستبداد . وجل ما اتى به في الخطبة التي خطبها اخيراً في الجزائر عن سياسة الاستعمار في افريقية وعما يجب على الدولة المتمدنة في جانب اهاليها المسلمين قوله « يجب لهم علينا الامن ، يجب لهم علينا العدل ، يجب لهم علينا كذلك التساهل » أي بالدين . وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام في نيسان هذه السنة . فقابل بين تينك الكلمتين وبين هذه الكلمات الثلاث وحكم ضميرك الحر ان كنت من الاحرار واحكم بعد ذلك بما شئت . لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية . ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الامم الاسيوية والافريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية . أو كما عبر أحد الافاضل بقوله « لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا ان يصعدوا الى القرآن بعقولهم أنزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد »

و بظهور الاسلام ظهرت طبقة جديدة من الادباء قيل لهم اهل الطبقة الاسلامية وهم الذين كانوا صدر الاسلام وأيام الدولة الاموية التي امتدت الى سنة ١٣٢ هـ وفي أوائل الدولة العباسية وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الاموية والعباسية ولخص حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الطريقة المثلى في الشعر بقوله :

وانما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية ان كيسا وان حمقا
وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وفي مقدمة هذه الطبقة عمر بن أبي ربيعة كبير قريش وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به ومنهم الخطيئة العبسي المشهور في الهجاء وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه . وكان جرير والفرزدق والاخطل من أعظم شعراء الدولة الاموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتنتصر لرأيه وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدال على

تفضيل الشعر الى القتال . والمشهور بين الادباء ان جرير مرجح على الفرزدق في اكثر أنواع الشعر وعلى الاخطل في جميع أنواعه . وكان الفرزدق والاخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته . واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع ايا صوفيا بالاستانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئاً عن عروة ابن الورد ايضاً . وممن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمه الثقفي صاحب مي بنت مقاتل . ومن هذه الطبقة نصيب و بشار المتوفى سنة ١٦٧ هـ وهو القائل « والاذن تعشق قبل العين أحيانا » وكثير غيرهم ويجمع كلامهم كتاب الاغاني الذي الفه ابو الفرج الاصفهاني المتوفي سنة ٣٥٦ هـ . وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني امية وكتابه هذا مطبوع في بولاق . ومختصره اي رواياته مطبوع في بيروت . وممن اشتهر بالنثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب وكان كاتباً لمروان الحمار فمات منكوباً حينما انقرضت الدولة الاموية . وجمعت رسائله في كتاب

فأهل هذه الطبقة وان نسجوا على منوال شعر الجاهلية فكلامهم اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنثورهم وخطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك . والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الامة وتأسس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الاقوام بعضها ببعض فاتسعت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع اهل الطبقة الاسلامية وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفاده من انفتاق الذهن وتوسع دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث

٦

ثم حصل انقلاب كبير في الامة وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الاموية وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات أعجمية وهي

(١) الفارسية والبهلوية

(٢) الهندية والسنسكرية

(٣) السريانية
(٤) العبرانية وسمي المترجم عنها بالاسرائيليات
(٥) اليونانية

وعكف أهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب ونقلوا للعربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الاعجمية وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفع (١٠٩ — ١٤٥ هـ) واسمه عبد الله بن داذبه وأصله من مجوس الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى بن علي عم السفاح أول الخلفاء العباسيين . واشتهر ابن المقفع بالفصاحة والبلاغة حتى قيل بانه الف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي . قال الباقلاني : فليس يوجد له كتاب يدعي مدع انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيى لنفسه من اظهاره . . الخ . ثم ذكر له الدرة اليتيمة وقال انهما كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة والآخر في شيء من الديانات وقد تهوس فيه بما لا يخفى . آه

على ان الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب كليلة ودمنة المطبوع في بيروت وهو قصة أدبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد أدباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدبائي وحررها باللغة الهندية فترجمت عنها الى اللغة البهلوية على عهد أنوشروان ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً . ثم ظهر على عهد هارون الرشيد ابان بن عبد الحميد من شعراء العرب وانتسب للبرامكة وغمر بانعامهم ونظم لهم كتاب كليلة ودمنة فقال بعد المقدمة

هـذا كتاب أدب ومحنه وهو الذي يدعى كليله ودمنه
فيه احتيـالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهنـد

وكان له نظر جيد في العلم والحكمة ونظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لابي العتاهية . وكان أبو نواس يأنف من مشاعرته لان كلامه كلام فلاسفة وحكماء لا كلام شاعر أديب متخصص بعلم الادب . واسترحم ابان بن عبد الحميد يوماً من يحيى بن خالد البرمكي بادخاله على الرشيد وعرض أشعاره عليه فأشار عليه يحيى بنظم قصيدته

السياسية التي قال فيها

نشدت بحق الله من كان مسلماً اعم بما قد قاله العجم والعرب
اعم رسول الله أقرب زلفة لديه ام ابن العم في رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس أحق بتلكم وكان عليٌّ بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لا بن العم في الارث قد حجب

فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبشر وأنعم على الشاعر بعشرين الف درهم

ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنف للمأمون كتاب قله وعفره يعارض به كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وأمثاله ويزيد عليه في حسن نظمه . ثم جاء ابن الهبارية واسمه الشريف أبو يعلي محمد بن محمد ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس رضي الله عنه . وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير الب ارسلان ثم انتسب لابنه ملكشاه ومدحهما بقصائد ونظم كليلة ودمنة وسماه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة وله كتاب آخر على هذا الاسلوب سماه الصادح والباغم ونظم فيه الفي بيت . وأشعاره سلسلة سهلة ومنها :

يقول أبو سعيد اذ رآني عفيفاً منذ عام ما شربت
على يداي شيخ تبت قل لي فقلت على يد الافلاس تبت

توفي سنة ٥٠٤ هجرية

وتُرجم غير كتاب كليلة ودمنة من لغات الاعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والادارية وشيء من كتاب زرادشت وكتاب ماني — قال المسعودي في مروج الذهب « وانتشر بأيدي الناس في ذاك الوقت كتاب أصله من بلاد العجم واسمه الف ليلة وليلة غير ان حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الاسم المتداول بيننا » واشتهر في الكتابة والانشاء أيضاً الجاحظ (١٦٥ — ٢٥٥ هـ) وهو أبو عثمان الكناني الليثي البصري وله طريقة في الانشاء يقال لها طريقة الجاحظ كما ان له مذهبا في الفلسفة

وقيل لاتباعه الجاحظية . وله مؤلفات كثيرة في الادب منها كتاب البيان والتبيين وكتاب الامصار وكتاب الحيوان وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب الاخير ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة اسكوريال باسبانيا وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ . ويوجد نسخة أصلية من كتاب الحيوان في مكتبه هامبورغ . وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته ولم يقصر عنه أبو الفضل محمد بن العميد (توفي ٣٦٠ ﻫ) وكان مؤدبًا لعضد الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه وله رسائل كبيرة وأشعار وكتاب « الخلق والخلق » لم ينقحه . وأثنى عليه الباقلاني فقال : انه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطرًا اتبعه من كلام الناس أوراقًا واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابًا . وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب أبا الفضل بن العميد ولذا قيل له الصاحب بن عباد

وممن اشتهر من الشعراء أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٩٠ — ٢٣١ ﻫ) وهو ميال للتصنع والتكلف والتعويص في المعاني وأحسن ما الفه كتاب الحماسة وهو مختار من كلام الشعراء المتقدمين . ومطبوع وله أيضًا كتاب فحول الشعراء وكتاب الاختيارات . ومنهم أبو نواس (توفي ١٩٥ ﻫ) وله سبك جيد وحلاوة ورقة . ومنهم ابن الرومي وابن المعتز وأشعرهم البحتري (٢٠٤ — ٢٨٤ ﻫ) وفضله الباقلاني على جميع أهل عصره لبهجة كلامه وبديع رونقه وديباجة شعره وكثرة مائه . وقال المعري : أبو تمام والمتنبي من الحكماء وأما الشاعر فهو البحتري . قالوا والبحتري يغير على أبي تمام اغارة ويأخذ منه صريحًا واشارة ويستأنس بالاخذ منه بخلاف مايستأنس بالاخذ من غيره وقد طبعت الموازنة بينهما في مطبعة الجوائب

وكان الخلفاء والرؤساء يشوقون شعراء الطبقة الاسلامية ويجيزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الافرنج ولو كان فعلهم مقيدًا بالقواعد والنظامات فان الاكاذيميات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف

أو يتبرع بها أصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة . فهذا الامر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم . وكان للخلفاء معرفة بفنون الادب وتبصر بجيد الكلام ورديئه ويحفظون أشعاراً كثيرة ويعانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى اذا رقوا منابر الخطابة أو تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس اليهم والقوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الافرنج في زماننا ولا سيما خطيبهم الشهير امبراطور المانيا فانه من أبلغ الخطباء في الملوك . وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببليغ الكلام لابجد الحسام . وظهر في ذوي الرياسة فحول من الادباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل واشتهر بابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتل وهو أفضل شعراء بني هاشم . ومثل أبي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المنتسبين لبني تغلب من قبائل العرب وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة . ومن شعر أبي فراس الحمداني قوله :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي وما أنا مداح وما أنا شاعر

وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبي يفضله على نفسه

وممن اشتهر في الادب أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وكلاهما من أدباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجوائب رسائلهما . ونسج الحريري على منوال الهمذاني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوربون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرانسا سيلفيستر دوساسي . وينتقد عليها أدباء الافرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما الفه الافرنج أو اليونان قديماً وانما صرف الحريري عنايته الى سبك الالفاظ وتصنيعها . وكانت ولادته في البصرة ثم نفي الى مشان بقرب البصرة (٤٤٦ — ٥١٥ هـ)

ومن المعلوم ان ايراد خلاصة تاريخ أدب اللسان العربي وذكر المشاهير من الادباء وتعيين طبقاتهم ليس بالامر السهل . ولذا نكتفي بالاشارة الى بعض من دون أخبار الشعراء . فمنهم ابن قتيبة المروذي (٢١٣—٢٧٦ هـ) صاحب « أدب الكاتب »

وله « ديوان الكتاب » و « طبقات الشعراء » وغير ذلك . ومنهم المبرد الازدي (٢١٠ — ٢٨٦ هـ) وله كتاب الكامل والمقتضب والروضة . ومنهم ابن المنجم (٢٤١ — ٣٠٠ هـ) وكان أبوه من كتاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس فألف هو في تاريخ الادب كتاب الباهر أو البارع في أخبار الشعراء . ثم جاء أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ — ٤٢٩ هـ) وهو عربي النسب نيسابوري المولد وكان يحترف بعمل فراء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلاً في ٤ مجلدات سماه « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » وجمع فيه أخبار شعراء زمانه ونوادرهم وأشعارهم . ثم جاء أبو الحسن علي الباخرزي نسبة لباخرز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقتولاً سنة ٤٦٧ هـ فحرر ذيلاً ليتيمة الثعالبي سماه دمية القصر وعصرة أهل العصر ومنه نسخة في الاستانة . وزاد عليه أبو الحسن بن زيد البيهقي — وبيهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً — ذيلاً سماه وشاح الدمية ثم جاء عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ — ٥٩٧ هـ) وزير السلطان صلاح الدين الايوبي والف كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ومنه نسخة في الاستانة وأخرى في باريس وفيه تراجم الشعراء وأشعارهم من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٧٢ هـ والف أيضاً كتاب السيل على الذيل وجعله ذيلاً لخريدة القصر . ثم جاء الوراق وهو أبو المعالي سعد بن علي الانصاري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وذيل ما تقدم بكتابه زينة الدهر وعصرة أهل العصر

فهذه المدونات من أهم الاجزاء في تاريخ الادب العربي ويمكن اتمامها باختيار مايروق من مؤلفات أبي شامة (٥٩٦ — ٦٦٥ هـ) وأبوه المقدسي . نشأ هو في مصر وكتابه « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » يدرس في الصوربون وطبع في مصر . ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (٧٠٠ — ٧٥٩ هـ) وكتابه مسالك الابصار في الممالك والامصار لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم أيضاً ومجلداته نحو ثلاثين وقيل أربعين وهو مرقم في كتبخانة أيا صوفيا في الاستانة من عدد ٣٤١٥ الى ٣٤٣٩ ومنه نسخة في مكتبة

باريس الاهلية والهمم جارية في طبعه . ولما كنت في الصيف الماضي بالاستانة شاهدت في كتبخانة الكوبريلي أحد المستشرقين من الانكليز يستنسخ بآلة التصوير الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم الا حرف العين فسألت فاذا هو « ارشاد الالباء في معرفة الادباء » تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤ — ٦٢٦هـ) صاحب معجم البلدان الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليبزيك سنة ١٨٦٩ في أربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس . وللحموي من المؤلفات النافعة معجم الادباء ومعجم الشعراء وكتاب أخبار المتنبي وعنوان كتاب الاغاني ومجموع كلام أبي علي الفارسي . . . فاذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخم فما بالك في بقية اجزاء هذا الكتاب . ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع نزهة الالباء في طبقات الادباء لمحمد بن شاكر الانباري ونسخته في الاستانة . وكتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . ونفحة الريحانة في طبقات الشعراء للمحبي ووفيات الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للكتبي والوافي بالوفيات لصلاح الدين ابن بيك الصفدي وأعيان العصر واعوان النصر له أيضاً . ثم تاريخ المحبي في أعيان القرن الحادي عشر والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر . وهكذا ينتهي الباحث الى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الاول من عكاظ الادب المطبوع في الاستانة عقب الحرب مع اليونان . وقد استعار صاحب عكاظ وهو أبو النصر السلاوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقباً من القاب المتقدمين وسمى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة . فأمرؤ القيس الثاني لنقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري . وأبي العلاء الثاني للاستاذ عبد الجليل افندي براده المدني ونابغة العراق لجميل افندي الزهاوي ونابغة مصر لاحمد بك شوقي وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن . وصاحب المعجز لاحمد محرم افندي وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي افندي العمري وشيخ الادبا لاحمد عزت باشا الفاروقي الموصلي ولبيد العصر للفيلسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي . ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطويراني وأبو الثناء للشيخ محمود قبادو التونسي

وأما اللغويون والنحاة فأحسن جامع لاخبارهم ما الفه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وسماه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع وهي عند الجسر في الاستانة العلية . وطبع في مصر وسوريا وأوروبا كثير من مؤلفات الاصمعي وابي زيد الانصاري البصري وأبي عبيده النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الافاضل

٧

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلامية من الامويين الى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة الى لسان العرب قرأ أدباء المسلمين كتاب المنطق لارسطو ورأوا فيه ذكر اوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الاعاجم ولا التفتوا الى أساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات الشخصية ولا قدّروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره . لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات سيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعيات والطب والهندسة ولكنهم لم يترجموا لاديب من أدباء اليونان ولا أدباء الرومان لا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم . ولعلهم خافوا على الناس من الرجوع الى عبادة الاوثان ان بحثوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة الى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع أفكار الشعراء الاسلاميين وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هاني في اشبيلية وهو المسمى بمتنبي الغرب . فحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم والحكمة فكلامهم ابلغ معنىً واكثر فوائد لاشتماله على أراء فلسفية وسياسية ومباحث عقلية وعلمية غير انهم خرجوا عن أساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم أساليب مخصوصة . فقام عليهم المتعصبون لاساليب العرب الاقدمين وسلقوهم بالسنة حداد وشددوا عليهم النكير كما فعل أصحاب طريقة كلاسيك مع فيكتور هوكو حينما شهر طريقة (رومانتيك)

فالمتمسكون بالاساليب القديمة من ادباء العرب يقولون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب المخصوصة اذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً . بل الشعر هو « الكلام البليغ ، المبني على الاستعارة والاوصاف ، المفصل باجزاء متفقه في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة » فلابد ان تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والاوصاف مثل منظومات المتون العلمية المدرسية والارجوزات الاخلاقية وقول العامي (أغلق الباب وائتني بالطعام) أو ما خلا عن تساوي الاوزان واتحاد الروي كقولهم (رب أخ كنت به مغتبطاً اشد كفي بعرى صحبته تمسكا مني بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه أملي ...) لان الوزن لم تتساوَ اجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات . أو لم يجر على أساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعراً وانما هو كلام منظوم . اما الاسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر او المنوال الذي ينسج عليه . وذلك انهم يقولون اذا أراد الطالب قرض الشعر ينبغي له ان يكثر من مطالعة أشعار العرب الاقدمين وان يحفظها ويرتاض فيها حتى تصير له ملكة في كلامهم فحينئذ يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من أشعارهم وهذا القالب الكلي ينطبق على جميع تلك التراكيب فسؤال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله (يادارمية بالعلياء فالسند) ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله : (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : (قفانبك من ذكري حبيب ومنزل) او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله (ألم تسأل فتخبرك الرسوم) . وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله (حي الديار بجانب الغزل) او بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

اسقى طلولهم اجس هذيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

انظر مقدمة بن خلدون

او بسؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلاً بالابرق واحد السحاب لها حداء الانيق

وكذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

او باستعظام الحادث كقوله (ارأيت من حملوا على الاعواد)

او بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لا حامٍ ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

او بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية

ايا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

او بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

القى الرماح ربيعة بن نزار اودى الردى بفريقك المغوار

وامثال ذلك .... فمن اراد قرض الشعر كان هو كالبناء او النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبنى فيه او المنوال الذي ينسج عليه . فان خرج عن القالب في بنائه او عن المنوال في نسجه كان فاسداً . ولذا رأى اهل الذوق في قول الشاعر :

لم ادر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديمها والبالي

كلام فقيه لقوله ما الفرق بين قديمها لان هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم لا من تعبيرات الادباء مع ما فيه من الوقوف بالاطلال فلم يستحسن اهل الذوق هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماءً ولذا لم يستحسنوا في الادب كلام الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة لخلوه عن هذا النور الذي يتلألأ في كلام الادباء ويخرج من نفس الاديب ومن قلبه وروحه . واما كلام الفقيه او الفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقاييسه فهو وان كان برهانه قاطعاً الا ان تأثيره على النفوس اقل من تأثير كلام الاديب . ومن كثرة حفظهم لاشعار المتقدمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمج الاسماء التي لم ترد في اشعار

الجاهلية . روي ان جرير انشد بعض خلفاء بني امية قصيدته

بان الخليط برامتين فودعوا اوكلما جدوا لبين تجزع

كيف العزاء ولم اجد مذ بنتم قلباً يقر ولا شراباً ينفع

قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله

ونقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزيت بغيرنا يا بوزع

فقال الخليفة افسدت شعرك بهذا الاسم . لان سمع الاديب لم يألف اسم بوزع كما الف هند ومي او فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى اجاز ساحة الحي وهي تجر اذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشية فيكتور هوكو بمعشوقته جوليت في مراقص باريس ومراسحها . ولم يزل الادباء يبنون كلامهم في ذاك القالب وينسجونه على ذاك المنوال حتى يومنا هذا كما فعل اصحاب المعلقات السبع التي نشرها صاحب عكاظ . وكلماتهم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي :

كلمة نقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري ومطلعها

اما ويمين الله حلفة مقسم لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم

وكلمة عبد الجليل افندي براده المدني

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

وكلمة جميل افندي الزهاوي البغدادي

هو الفتح القى في قلوب العدى هولا واثبت ان الحق يعلو ولا يعلى

وكلمة احمد شوقي بك المصري

بسيفك يعلو الحق والحق اغلب وينصر دين الله ايان تضرب

وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري

ابت ضيمها في الناس كيف اضيمها حياة تساوى بؤسها ونعيمها

وكلمة احمد محرم افندي المصري

منازل سلمى لاعدتك الغمائم ولا درست بالجزع منك المعالم

وكلمة ابي النصر السلاوي باشا المصري

على مثالها فلتحمد الهمم الغر فما هي الا الحرب اعقبها النصر

فالمتنبي والمعري خرجا عن هذا القالب وذاك المنوال الذي وضعه شعراء الجاهلية وجعل كل منهما له مذهباً مخصوصاً في الادب وأساليب معروفة في الشعر. ولذا قال ابن خلدون « وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب »

و بعد ان كان حسان يقول

وان احسن بيت أنت قائله بيتٌ يقال اذا انشدته صدقا

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان زهير لايمدح الرجل الا بما فيه — صار أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ماترجم من كتب العلم يمدحون باشعارهم امرآء العجم الذين لايفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط لاسوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هاني ومن بعدهم . فان حبيباً الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف الشام والعراق وخراسان ومدح الخلفاء والملوك والامراء بقصائد كثيرة . والبحتري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام ومدح الامراء واجتمع في حمص على أبي تمام . والمتنبي ولد في الكوفة وأبوه سقاء من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان ثم ذهب لمصر ومدح كافور الاخشيدي الخصي الاسود ثم ذهب لبغداد وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم وهو ممن حاول ان يأتي بمثل القرآن كابن المقفع ولكنهما عجزا وأبطلا ما كتباه ولذا هجا بعضهم المتنبي فقال

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة المـا ء وحيناً يبيع مـاء المحيـا

وكذا ابن هاني متنبي الغرب ولد في اشبيلية وطاف بلاد افريقية ومدح أمراء البربر وهو القائل في المعز لدين الله

ماشئت لا ما شأت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين وصار يقال احسن الشعر اكذبه . وقلد شعراء العرب العجم في مبالغاتهم وغلقهم للامراء دفعاً للشر واستجلاباً للاحسان والخير . واستبد الرؤساء بالامر وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم لاستعمال فن الخطابة وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الامة اليهم بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وارهابهم بحد السيف فاستخفوا بالامة و بالرأي العام وتمثلوا بقول المتنبي

السيف أصدق أنباء من الكتب

و بقول عمارة اليمني السياسي

وشفرة السيف تستغني عن القلم [1]

وفعلوا بالامة ما قاله لها الحجاج سابقا « لاعصبنكم عصب السلمة وألحونكم لحو العصا ولاضربنكم ضرب غرائب الابل يا أهل العراق . يا أهل الشقاق والنفاق . ومساوىء الاخلاق . اني والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب . يا عبيد العصا واشباه الآماء انما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا ياأهل همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجتنبك المظالم »

وقال المعتضد عند وفاته في سنة ٢٨٩ هـ وهو سادس عشر الخلفاء العباسية ولعله

---

(١) والشطرة الاولى (العلم مذ كان محتاج الى العلم) او (العلم اول محتاج الى العلم) وهو مطلع قصيدة حرض فيها شمس الدولة على تملك اليمن ومن ابياتها المتلهبة تلهب الجمر قوله :

ان المعالي عروس غير وامقة ان لم تخلق ردائيها برشح دم

ومنها : وكان اول هذا الدين من رجل سعى الى ان دعوه سيد الامم

وقد طبع ديوانهُ الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ سنة ١٨٩٧ مع كتابه النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية

ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمنن الدهر اني امنته فلم يبق لي خلاً ولم يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم ادع عدوًا ولم امهل على طغيه خلقا
واخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزًّا ورفعةً وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي فها انا ذا في حفرتي عاجلاً القى

ولكن الرؤساء من الاعاجم فعلوا فعلاً بلا قول لعجمة لسانهم وأصبح تعاطي الشعر هجنة في الرئاسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة وقدموا الجهلاء على الشعراء ودعوهم بالظرفاء واهملت فنون الادب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية الى درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس ويعتبرون السكوت عين الادب واذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور . وكثيرًا ما يتلوه اجهل المجتمعين ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسماع

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عمته فاراد تعيينه في منصب فقيل له امي فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه ان يقرأ عليه ما كتبته جريدة الجوائب اذ ذاك فلما أمسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاهي عنه ولم يعينه . ولقد دقق في هذا البحث عبد الرحيم افندي احمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبة تامة بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الادب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الادباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرب لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه

قال مبعوث مصر المشار اليه ولقد لاحظت في المتكلمين بلسان العرب ان الحرية اذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم وفاهم وهكذا احلم ياسيدي الخلاصة والنتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلم . هذا في المخاطبات

بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالافراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فاما ان ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس او بتلاوة الدعاء المأثور. وان جعل الادب حرمة فيتلى في ذاك الاجتماع قصيدة مدح او تبريك او عزاء وينفض الجمع بغير ان يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام ويصور بكلامه حالة تلك الهيئة المجتمعة

٨

أما أهل الاندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماءً صافية وأرضاً طيبة وهواءً نقياً وأشجاراً مزهرة وأنهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة اتسعت افكارهم واستبحر عمرانهم وراقت أشعارهم ورقت معانيهم وتهذبت فنون الشعر ومناحيه في قطرهم وبلغ التنميق فيه الغاية وكثر فيهم الادباء والشعراء. فوسعوا دائرة الادب ونظموا الشعر في جميع الاعاريض المعروفة عند العرب وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر واغراضه من نسيب ومدح ورثاء وهجاء. ثم لم يكتفوا بكل هذا بل وجدوا الزمان والمكان يقتضيان لهما فنون جديدة من الشعر ينسج على منوال غير المنوال الذي وضعه عرب الجاهلية ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا اسلوب الشعر وعروضه كما فعل فيكتور هوكو وأهل طبقته في تغيير عروض الشعر الفرنساوي. واستحدث المتأخرون من الاندلسيين الموشح والزجل والمربع والمخمس والمعصب على أربعة أجزاء والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وعروض البلد والاصمعيات والحوراني والمواليا والدوبيت وهما لاهل الشرق وغير ذلك من التفنن الذي لا يدخل تحت حصر. فأول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٤٨ هـ) صاحب كتاب العقد الفريد. وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجيباً ولم أدخل مكتبة من مكتبات الاستانة[1] الا واجد فيها نسخة أو اكثر من هذا المؤلف ثم شاع استعمال الموشح

(١) في الاستانة ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامة والاهمية ومجموع ما فيها من الكتب اقل من ثمانين الفاً بقليل وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ

في الاندلس واستظرفه الناس ونظم فيه كثير من الادباء ونسج على منوالهم أدباء الشرق وطبع كثير من الموشحات واشتهر . فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب . وكان معاصرًا لابن خلدون وكأنه ندب حضارة الاندلس بمطلع هذا الموشح حيث قال

جادك الغيث اذ الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

ومن أبدع ما أتوا به في الموشحات قول بعضهم

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

ثم نسج أهل الامصار على منوال الموشح ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من غير التزام اعراب وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل وأول من أبدعه ابو بكر بن قزمان ومع انه قرطبي الدار كان يتردد كثيرًا الى اشبيلية مركز الادباء ومجمع الظرفاء وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حمص الفريبة من نهر العاصي ولذا أطلقوا عليها اسم حمص فكان أبو بكر بن قزمان يركب مع أصحابه في النهر للنزهة والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الادبية وهم في الزورق . وقد استخرج صاحب جريدة الارز من مكتبة في رومه شيئًا من زجل الاندلسيين ونشره في مجلد . وأما الاصمعيات فهي الشعر البدوي وسميت اصمعيات نسبة للاصمعي راويه العرب (١٢٢ — ٢١٦ هـ) وهي قصيدة طويلة بلا اعراب بل هي بلغتهم الدارجة ويبتدأ فيها غالبًا باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد التاريخية . والمعصب يجيئون فيه على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة . والحوراني نسبة لحوران بأرض الشام . ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية ما لا ينكر . بخلاف ما أحدثوه من

كثير وربما قيد في الفهرست المجموع المشتمل على عدة رسائل باسم الرسالة الاولى وفيها من نفائس الكتب مالا يقدر

الصنائع اللفظية

وبيان ذلك ان أدباء العرب في الجاهلية والاسلام صرفوا عنايتهم في النظم والنثر الى الالفاظ لا الى المعاني فالهدف الذي كان الاديب منهم يروم اصابته هو التفنن في طرق الافادة وبيان المعنى الواحد بأساليب مختلفة من الكلام. وشبهوا المعنى بالماء والالفاظ والتراكيب بالاناء فمنه أنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف. فغرض الشاعر منهم اسقاء سامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا يتغير باجمل أناء يصوغه له حسب قدرته. ولم يكن غرضه أسقاء سامعه انواع المياه الخفيفة المهضمة من منابع مختلفة معدنية ولا أسقاءه أنواع الخمور أو المرطبات والبزورات بأي أناء كان ولذا أظهر الادباء كل مهارتهم في الالفاظ وبينوا اقتدارهم في معرفة اللغة وحفظ الاسماء الكثيرة والمترادفات وافادة المعنى الواحد بطرق مختلفة فكانت الالفاظ طوع قريحتهم يتصرفون بها كما يتصرف الصائغ في سبك الفضة. فألفوا في الالفاظ المهمل والمنقوط والمشجر وما يقرأ طرداً وعكساً ولزموا في القوافي ما لا يلزم ونظموا الخالية وأمثالها — يروي عن أديب انه أجاب من شتمه بقوله الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم. وحفظوا اسماء كثيرة للبعير والناقة والسيف ولكل ما اشتهر بالخسة والشرف وقالوا كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى أو خسته. ونجد امرىء القيس اذا وصف الفرس لم يدع عضواً من أعضائه الا شرحه تشريحاً. وألفوا كتباً كبيرة من الاحرف المهملة أو المعجمة مثل التفسير الذي الفه مفتي الشام السابق المرحوم محمود افندي حمزه بالحروف المهملة ولما طبع هذا التفسير بدمشق بعثني والدي بنسخة منه الى المرحوم مفتي الخليل التميمي وكان علامة الديار المقدسية. فنظر في التفسير طويلا ثم رده الي وقال لو لم يقيد قلمه بالاحرف المهملة لافادنا بأكثر من هذا. وكتاب عنوان الشرف المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر. وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الاستانة. ولما قال العماد الكاتب « سر فلا كيا بك الفرس » اجابه القاضي الفاضل « دام علاء العماد ». والجملتان مما يقرأ طرداً وعكساً. وكان القاضي الفاضل رئيساً للمراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الايوبي والعماد الكاتب

بمعيته رئيساً لقلم المصالح الشامية وكتابه الفتح القدسي طبع في السنين الاخيرة . وقال أبو عبد الله بن بيس من علماء الاندلس وهو شيخ لسان الدين بن الخطيب المشهور :

اساجعه بالوادبين تبوأي ثمارًا جنتها حاليات خواضب
دعن ذكر روض زانه سقي شربه صباح ضحى طي ظباء عصائب
غرام فؤادي قاذف كل ليلة متى ماتأى وهنا هواه يراقب

فجمع في أول الكلمات حروف الهجاء من الالف الى الياء على الترتيب

فأدباء الافرنج يقولون . نعم ان الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة وفيه تهييج للسامع وهو على اسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية ولكن الكلام الذي فيه تصنع في الالفاظ وتعمل في الشكل الخارجي لايكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري . وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه احساس ولا عظمة مطلقاً واذا ارتفع نفس الشاعر او الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتعمل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع حالاً وينتقل الى غير ما هو فيه . بخلاف الشعر اليوناني أو الافرنجي كروايه ايرناني مثلاً فان فيكتور هوكو نظمها على نفس واحد ونسق واحد وأبدع فيها بماقاله عن لسان شارلكين من الكلام العالي الملوكي . فاذا نطق به الشخص على مرسح التشخيص أخذ بمجامع القلوب واستمر الشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لاعماق أفئدة السامعين ويؤثر فيها تأثيرًا عظيما . ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري و بين رواية مضحكة من روايات موليير التشخيصية فهم مغنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني وامثالهما . وينتقدون على المقامات ايضاً من جهة التهتك بالاخلاق والتغزل بالبنين كالتغزل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام ادباء الافرنج المشهورين الا من ندر منهم مثل الاديب الانكليزي الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في اصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان

والحق ان هولاء الافاضل لم يقصدوا بتاليف المقامة تصوير رواية مضحكة على اسلوب الكوميديه ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية . وانما قصدوا اظهار المقدرة

على تصنيف الكلام وتدبيجه بديباج الاستعارات والبـاسه حلل التشابيه وترصيعه بلآلىء البديع كقول الحريري في وصف الخطيب « يختلب الاسماع بجواهر لفظه ويجتذب القلوب بزواجروعظه » من الكلام المدبج المصنع المرصع الذي لو نطق به على مرسح التشخيص لا يفهمه العوام ويحتاج الخواص الى النظر في صنائعه وأعمال الفكر في بدائعه . والا لو صرف الواحد من أولئك الافاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان او الرومان او الافرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمور وأعلاها طبقة . ولكنه أراد ان يغترف من ماء البحر بأناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاه بالمينا الثمينة ورصعه فوق ذلك بعروق وأوراق من الجواهر واللآلي ليخفي لنا الماء بابهى أناء ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر . وقد يغرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجه الى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحاتهم . لان الكاتب منهم لم يكتب للعوام وأهل السوق وانما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولاصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة وينتقي أعلى طبقات الكلام وأعوصها في اللغة . فالمعري على ماله من جلالة القدر في الادب لم يسقنا الحكمة من كأسه الا وهو يغوص في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والامثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي الفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي او ترجمتها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ليس فيها تصنع في الالفاظ والتراكيب ولا فيها احتياج الى تفسير الالفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض

فالاندلسيون أصلحوا كثيرًا من الخلل الموجود في أدب العرب وجاؤا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر وأوجدوا فنونًا مستحدثة واتبعوا في الكلام شعورهم وأحساسهم القلبي فطافوا على قرائهم بصحاف من ذهب واكواب فيها بعض ما تشتهي الانفس . ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الارض مشابهة

بأشعار الافرنج كوصف حمدونه وهي من بنات الاندلس الشواعر لوادي آش وهو في أيالة غرناطة قالت

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم (١)
حللنا (٢) دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظماء زلالاً الذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فيلمس جانب العقد النظيم

وقال أبو الفدا لابل الابيات لاحمد بن يوسف المنازي المتوفي سنة ٤٣٧ ﻫ وزير ابي نصر احمد ابن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل الى القسطنطينية ومر في بعض أسفاره بوادي بزاعا فأعجبه حسنه فقال فيه الابيات . ووادي بزاعا في ولاية حلب واليه ينسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء

ولو طال على الاندلسين الأمد في الحضارة وتعاقبت الادوار على اللغة وتوالت عليها الانقلابات لاتوا بأحسن مما جاء به فيكتور هوكو وأميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري . ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فأمحلت عقولهم وسدت قرائحهم . وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو ذاهب لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتوريا ملكة الانكليز فوجدت رئيس الوفد الذي هو السفير الكبير أمياً

ثم ان العارفين باللغات نصوا على ان لأدب اللسان العبراني تأثيراً على أدب العرب قبل الاسلام و بعده وذكروا مشابهة وتواردًا في الخواطر بين ما جاء في شعر امرىء القيس الذي يضرب فيه المثل اذا ركب و بين ما ورد في سفر أيوب من التوراة في وصف الفرس . ونقل بعد الاسلام من العبرانية الى العربية ما سمي بالاسرائيليات مثل التواريخ وقصص الانبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة والتلمود وكان نقلها عن احبار اليهود الذين أسلموا مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما رضي الله عنهم . وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية

---

(١) نسخة : وقاه مضاعف النبت العميم . (٢) نزلنا

كتاب كليلة ودمنة وما شابهه وكيف نسج الادباء على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الادبية والاخلاقات الفكرية . ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ولم يغير شيئاً من أساليبه القديمة ودامت أساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصوب نحوه كل شاعر بالعربية في قديم الزمان وحديثه

فيتضح مما تقدم ان العرب لم يأخذوا من الامم الذين ترجموا كتبهم الا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع انهم رأوا في كتاب المنطق لارسطو ثناء طيباً على أوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي والمعري وابن هاني الا من جهة افادتهم الآراء الفلسفية لا من جهة افادتهم أساليب النظم وطرق الكلام

ومن فحول هذه الطبقة أبو العتاهية وكان في أيام المهدي وهارون الرشيد والمأمون واكثر في أشعاره من ذم الدنيا لغدرها بابنائها ومن تذكير الغافلين بالموت ولم يشوق للآخرة ونعيمها ومن لطيف شعره

الا انما كلنا بائد ... وأي بني آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ... وكلٌّ الى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الاله ... ام كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على انه واحد

ومن فلاسفة الشعراء أيضاً ابن الشبل ابو علي حسين بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٤٧٤هـ وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان وقصيدة فلسفية يقول فيها

بربك أيها الفلك المدار ... اقصد ذا المسير ام اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ... ففي افهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء ... سوى هذا الفضاء به تدار

وعندك ترفع الارواح أم هل مع الاجساد يدركها البوار

الخ :

ولا بن سينا والرازي أشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

الخ ...

وله أشعار بالفارسية أيضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والالحاد . ومن كلام أبي بكر الرازي محمد بن زكريا قوله

لعمري ما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحال الى اين ترحالي
واين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي

الى غير ذلك مما أتى على هذا النسق من كلام أهل هذه الطبقة

فان لم يكن لفنون الادب الاعجمية كبير تأثير على شعر العرب ونثرهم فهل لفنون الادب العربي تأثير على شعر الافرنج ؟

بينا البحث عن جواب هذا السؤال واذ رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد ٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذاري المائسات الذي استخرجه صاحب جريدة الارز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف المغربي المشبج عثر عليه في خزانة كتب بدير القديس انطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة وقال فيه :

فتصفحته فاذا فيه طائفة كثيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات خرج بها ناظموها عن أوزان الشعر العربي المعينة واجزاء بحوره المفروضة وأحكام أعاريضها وضروبها المطردة بيد انهم اجادوا في ذلك منتهى الاجادة فانتقيت مما عثرت عليه كل نفيس .... خدمة لاهل الادب واثباتاً لسبق العرب اليها ... — وبعد ان ذكر صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلد والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وغير ذلك قال :

وقد استحسن شعراء الافرنج من الاسبان والالمان والطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا على منوالها كما يرى ذلك في دواوين شعرائهم . ولامراء بأن ذلك انتقل اليهم من العرب حيث لم يأنسوا بأنوار هذه المستحدثات الا في أواخر القرن الثالث عشر . والمتصفح لكتب العرب والافرنج يرى شذرات من هاتيك المذارى . ولكن قل ان يراها مجتمعة في صفحات عديدة أو كتاب واحد مع انها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع (انتهى)

فايضاحاً لمجمل هذا القول رأينا ان نبحث في منشأ الادب الافرنجي وفي دخول العرب بلاد الافرنج

٩

كانت فرانسا في قديم الزمان تسمى أرض الغول وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين . فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من ايطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على اسبانيا لجياده الهواء والارض فيها وشكلوا في اطراف مرسيليا ومصب نهر الرون ولاية سموها بروفانس ومعناها الايالة وجعلوا عاصمتها مدينة اكس وهي في شمالي مرسيليا . وبنوا على الحدود الاسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم الى اسبانيا والى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة .

وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسع حدود الولاية وفتح ارض الغول والحقها باملاك الدولة الرومانية فصارت الولاة ترسل اليها من رومة ومعهم العسكر والمأمورون فنظموا ادارتها وفتحوا طرقها وعمروا فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة وادخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة واستمرت بلاد الغول في أيدي الرومانيين نحو اربعمائة سنة . وحينما انقسمت دولة

﴿ استدراك ﴾ : ورد صفحة ٦٠ سطر ٦ « المتنبي » صوابها « أبي تمام »

الرومان الى شرقية مقرها القسطنطينية والى غربية مقرها روميه وذلك في سنة ٣٩٥ م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورة غير ان تسبب الولاة وضعف قوتهم العسكرية اباح لقبائل الجرمان التجاوز على أرض الغول والاستيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال ارض اسبانيا وسموا الاندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا او أندالوسيا . ففي اوائل القرن الخامس للميلاد نزلت قبائل الويزي قوط في جنوب نهر لوار المار في وسط فرنسا والمنصب في المحيط بالقرب من مدينة نانت . ونزلت قبائل البورغوند في وادي الرون وجبال جورا ونزلت قبائل الفرنك في شمالي أرض الغول اي في بلاد البلجيك . ونزلت الالمان على ضفاف الرين العليا واستمرت حكومة الرومانيين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين . غير ان القبائل النازلة سالموا الحاكم الروماني وقاتلوا تحت قيادته قبائل الهون الاسيوية وكانت قد هجمت على غربي اوروبا وخربت البلاد وأراقت الدماء فهزموا رئيسهم اتيلا سنة ٤٥٠ م امام مدينة شالون التي على نهر مارن . فلمت قبائل الهون شعثها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في ايطاليا كالسيل الجارف واستولوا على رومة سنة ٤٧٦ م وابادوا ملكها . فتفردت قياصرة الروم في القسطنطينية بالحكم على الرومانيين واستقلت القبائل النازلة في ارض الغول وكان أشجعهم واقدرهم قبائل الفرنك فاستبدوا بالامر وطرد رئيسهم قلوفيس الوالي الروماني وقام مقامه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته×هو وقومه ونصره الرهبان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم واسس سنة ٤٨١ م الدولة التي سميت باسم جده « ميروفة » فقيل لها (ميروفينجيان) أي آل ميروفة وهي اول دولة من الافرنج ودام حكمها ثلاثة قرون . وحيث كان ملوك الافرنج يقسمون الملك بين أولادهم انقسمت دولة الميروفينجيان الى أقسام متفرقة فضعفت قوتها وتضعضعت وأصبحت ايام دخول العرب اليها منقسمة الى أربع ممالك يملكها ملوك من آل ميروفه

(١) اوستراسيا أي المملكة الشرقية وهي عبارة عن الالزاس واللورين وما جاورهما من ضفاف نهر الرين . ولم يكن لملكها من آل ميروفه نفوذ فيها بل كانت

الكلمة فيها لاعيانها وكبيرهم دوق اوستراسيا ومقرهم مدينة مج

(٢) نوستريا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين الى أورليان جنوباً وعاصمتها باريس وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة ميروفنجيان اصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا

(٣) بورغونيا وهي على ضفاف الرون والسون وعاصمتها ديجون

(٤) اكيتانيا وهي ما بين جبال البيرينه ونهر غارون المنصب في المحيط بعد مروره بطولوز وبوردو . وكانت اذ ذاك تحت حكم الدوق أود الملقب بدوق اكيتانيا وهو من نسل ميروفه ومقره طولوز . وتسمى الايالة المحيطة بها لانغيدوق وما في جنوبها سبتيمانيا كما يسمى القسم الذي على ساحل الاوقيانوس المحيط غسكونيا وأطلق عليه في كتب العرب ارض غشكونية

ففي سنة ٦٨٧ م تداخل دوق اوستراسيا المسمى بيبين دريسنال في شؤون مملكة نوستريا لغفلة ملوكها من آل ميروفه واهمالهم مصالح الملك حتى اطلق عليهم اسم الملوك البطالين لقعودهم وتخشهم . وجعل بيبين نفسه مشيراً الملك في باريس وأميراً للامراء في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين ثم انضمت اليهم بورغونيا فصار لدوق اوستراسيا نفوذ في أكثر المملكة وهيأ الامر لابنه شارل مارتل صاحب الوقائع مع العرب ولحفيده من بعده . فحقد على بيبين الامراء من آل ميروفه لا سيما أود دوق اكيتانيا لتفوقهم عليه في الاصالة وشرف النسب

وقبل دخول الرومانيين ارض الغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت النازلين أرض بريطانية السن مخصوصة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين ومأموروهم ومن تبعهم من التجار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم أي اللاتينية الدارجة ويلوكون بها السنتهم كما يلوك الزنجي لسانه بالعربية او السنغالي بالفرنساوية فلما استولت قبائل الفرنك على ارض الغول وطردوا منها والي الرومان اقتبسوا لسان اهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا الى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان) وهي لاتينية سوقية تحرفت

بلسان الغولوا والسلت ثم امتزجت بلسان الفرانك . وحيث كان اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقي والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة الى قسمين احدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوق) ومنه لسان بروفانسال المنسوب لايالة بروفانس وهو أقرب للسان الطليان والاسبانيول منه الى اللسان الفرنساوي الجديد . والثاني كان يتكلم به أهل الشمال ويسمى (اويل) . ثم انقسمت لغة اهل الشمال الى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة جزيرة فرانساوهي الايالة التي عاصمتها باريس وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغة الفرنساوية الحالية ثم انتشرت في الايالات الجنوبية حينما استولى عليها سنة ٩٨٧ م هوغ قابت مؤسس الدولة الثالثة من دول الافرنج في فرنسا . ولم تزل الحكومة الفرنساوية تسعى في نشرها وتعميمها واصلاحها الى يومنا هذا . ومع ما تصرفه من العناية في تعليمها لم يزل في اهل القرى من لا يعرف منها الكلمة الواحدة . ونزلتُ ذات يوم قرية من قرى الفرنساويين في جبال البيرينه فلم استطع التفاهم مع اهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة وله تردد على الامصار الفرنساوية ومدنها العامرة

فالفرنساويون اخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية وسموا انفسهم باسم قبيلة اجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من المانيا وتغلبوا على فرنسا واسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتناسوا اسمها القديم وهو ارض الغول واسم سكانها الغولوا

ولما دخل العرب فرنسا كان اهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة اذ كانت القرآءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم اوربا الغربية بما فيه انكلترة . فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان ومنهم سميت اكيتانيا بارض غسكونية . ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠,٠٠٠ في فرنسا ونصف مليون في اسبانيا . ومنها لغة بروفانسال ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم بها اهل القرى في الولايات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا . ومنها لغة بريتون

وهي بقية لغة القلت او السلت ولم يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا . ومنها لغة فلاماند وهي نوع من الالمانية ولم يزل يتكلم بها نحو ١٦٥,٠٠٠ من سكان الحدود الشمالية . وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون ان يبقى لها اثر في اللغة الفرنساوية كلغة اكيتانيا او بقي لها أثر فيما يسمونه باتوا من لغات أهل القرى اذ لكل ناحية باتوا مخصوصة بها لا يفهمها أهل الناحية الاخرى بخلاف اللغة العربية الدارجة فان المرسيني والاسكندروني والبيروتي واليافي والاسكندري والطرابلسي والتونسي والجزائري والطنجي يفهم بعضهم بعضاً بأدنى تأمل وأقل فكر مهما تحرفت كلماتهم وكذا أهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذر عليهم فهم لهجات بعضهم بعضاً مع انه لم يحصل عناية ولا همة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الاعجمية كالفرنساوية والانكليزية والطليانية والتركية . فبينما كانت فرانسا متفرقة الكلمة لغة وسياسة اذ دهما العرب واستولوا على اكثرها

١٠

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد ٤٨ — ٩٦ هـ) سادس الخلفاء الامويين والثالث من آل مروان كانت ولاية أفريقية ملحقة بولاية مصر والعامل عليهما عبد العزيز بن مروان فلما أتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فشكاه الحسن بن النعمان الى الوليد ففسخ عن مصر أفريقية وولاها موسى ابن نصير . وكانت مملكة القوط في اختلال من استبداد رودريك بالامر وتغلبه على طليطلة عاصمة الملك وظلمه في قبائل القوط وتسلطه على اعراض بناتهم فاستجار الاسبانيول بالعدالة الاسلامية واغتنم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد أطيب هواءً من الشام وأخصب أرضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند . وبعد استحصاله على اذن الخليفة سير طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من أضيق محل فيه ونزل بساحل أور با عند صخرة هائلة كأنها الجبل فسميت باسمه وقيل لها جبل الطارق وقيل لمجمع البحرين المكتنفين بها بوغاز

جبل الطارق (جبر التار) وكان ذلك سنة ٩٢ للهجرة وسنة ٧١٠ م . وألف عبد الحق حامد مستشار سفارة لوندره رواية تشخيصية باللسان العثماني سماها طارق وأبدع في نظمها ونثرها وبين فيها هذا الفتح المبين . فانتصر طارق في محاربة وادي ليتة بالقرب من جزيرة قادس . ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشراف قريش وفتحوا مالقه واشبيلية وهي على شاطىء الوادي الكبير وقرطبة وطليطلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر تاج . وظلوا سائرين حتى بلغوا أسفل جبال البيرينه الفاصلة بين اسبانيا وفرانسا وفتحوا استورغة وهي في أسفل تلك الجبال . وهذه أول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينه وهم تحت قيادة موسى ابن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء — هذا من جهة الغرب

وأما من جهة الشرق فسير الحجاج والي العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهند وسير جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة بن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغر وأخذ الجزية من ملك الصين . وأصبح ما بين المشرق والمغرب تابعاً للوليد وهو منعم في قصره لم يخرج في غزوة . واستوثقت له الامور ولم تتغلل عساكره المنصورة الا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم وهي في قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك . وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة اورال) وما في شمالها من أراضي سبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس . وبلاد الروم هي بر الاناطول والروم ايلي وكانت تابعة لقيصر الروم أي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من أجزاء الممالك العثمانية . ومن حسن حظ الوليد توفقه لبناء المسجد الاقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذاك الزمان وترقي أهله في الصنائع والعمران

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (٥٤ — ٩٩ هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير . وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الاسلامية بأشنع

مما جوزى به سنمار . فماتوا منكوبين قهراً لا يملكون شيئاً مما جنته أيديهم من أموال الغنائم . وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأةً على حسن ادارته في ولاية اشبيلية . وكان موسى متأهباً للاغارة على الامم التي بين جبال البيرينه وخليج القسطنطينية وادخالها جميعاً في الاسلام كما دخلت أمم أسيا وأفريقية ولم يكن هذا الامر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والتفرقة بين أمراء الافرنج وعدم النجابة في ملوكهم الملقبين بالبطالين . ولكن سوء تدبير الامويين صده عن هذا العمل العظيم ومكن الافرنج في فرانسا مما لم يتمكن منه القوط في اسبانيا من الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب . وبسوء تدبير الخلفاء أيضاً وعدم غرسهم المعروف في أهله وعدم مكافاتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنيين التحق البملبكي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم وأسرَّ اليه كيفية عمل هذه النار فأمر باصطناعها في معامل القسطنطينية برّاً وبحراً . لان مسلمة بن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الاسلام بر الاناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوغاز چنا قلعه) وطلع لاوربا واتبع ساحل بحر مرمره حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الازدي في خلافة معاوية سنة ٤٨ هـ واستشهد اذ ذاك ٣٠ ألفاً من أهل الاسلام وفيهم خالد أبو أيوب الانصاري ولم يزل ضريحه يزار في الحي المنسوب اليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب . وبينما كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البر كان اسطول الاسلام المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب احراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية . فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لانها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم وكانت عدتها الف وثمانماية مركب والكبار منها عشرون مركباً امام عاصمة الروم كأنها الغاب من الصواري والكماة فيها كالاسود . فاحترقت بأجمعها ولم يعد منها للاسكندرية سوى خمسة مراكب — فالمخترع لهذه النار السيالة على ما ذكره المؤرخ الانكليزي جيبون هو رجل من بعلبك يسمى كالينيقوس كان يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين

فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمر ما تنصب عليه ولذا سميت أيضاً النار البحرية. وما زال العسكر في الحرب يعولون عليها ويتقون ضرها الى أن اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع باضافتهم الى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود. ونقله عنهم في القرن الثالث عشر للميلاد روجر باكون الانكليزي (١٢١٤ — ١٢٩٤ م) وغيره من كيماويي الافرنج واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في المحاربة التي وقعت بين فرانسا وانكلتره في قريسى وهي في شمال باريس على نهر صوم. فكان ملك الانكليز ادوارد الثالث يقود العساكر هو وابنه البرنس دوغال وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذلك الوقت فغلب الانكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري . فهذه أول محاربة في اوربا استعملت فيها المدافع ولكن المظنون ان العرب استعملوها قبل هذا التاريخ اي في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هـ — وعلى كلٍ فلا ندري كيف ترك هذا الكيماوي البعلبكي خدمة الخلفاء الامويين والتحق بقيصر الروم وفي الدولة الاموية في ذلك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم

توفي سليمان بن عبد الملك مرابطاً في مرج دابق من ارض قنسرين واخوه مسلمه منازل القسطنطينية . ثم جلس عمر (٦١ — ١٠١ هـ) بن عبد العزيز بن مروان وأبقى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية وتجاوزت عساكر الاندلس الى وراء جبال البيرينة من أرض فرنسا ليحققوا أمال موسى بن نصير في الذهاب برًّا الى القسطنطينية . وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتتصل في في البحر الشامي بترعة طولها ثماني كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء. فحاصرها علقمة بجيوش المسلمين من البر والبحر وامتد الحصار سنتين لتحصنها بالمستنقعات وبالقلاع الرومانية

ثم جلس يزيد (٧٦ — ١٠٥) بن عبد الملك بن مروان تاسع الامويين

وسادس المروانيين وفي ايامه دخل علقمة بالسيف الى نربونه فرممها وزاد في تحصينها واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرانسا وصار العرب يسمونها أربونة وافتتحوا ما حولها من القرى والقصبات التي في أرض سبتمانية وظلوا سائرين حتى دخلوا ايالة لانغيدوق والقوا الحصار على مدينة طولوز (طلوشه) وكانت اذ ذاك مقر دوق اكيتانيا المسمى اود . فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزى قوط والواسكون والفرانك واقتتلا قتالاً شديداً قتل فيه كثير من الجانبين وكان علقمة يستشيط غيرة وحمية ويكر بنفسه ويشجع الابطال بكلامه فأصابه سهم قضى به نحبه وافترق الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة ٧٢١ م وسنة ١٠٣ هـ . فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن وكان من ذوي الحمية والاقتدار ومن أصحاب عبد الله بن عمر وانقلب راجعاً الى ضواحي نربون والى مصب نهر الرون

وفي سنة ١٠٥ هـ اوسنة ٧٢٤ م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حبابة فجلس على كرسي الخلافة أخوه هشام (٧٠ — ١٢٥ هـ) بن عبد الملك بن مروان وعين واليا على الاندلس عنبسه فأراد الاخذ بثارسلفه علقمه وتجاز بالعساكر جبال البيرينة ونزل ايالة سبتمانية وهي اليوم ولاية البيرينة الشرقية وولاية أود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (قرقشونه) وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيليا وطولوز وبوردو . وتقدم عنبسة بالعسكر فجاءهُ أهل مدينة نيم وهي في الشمال الغربي من مرسيليا وطلبوا منه الامان فأمنهم ودخل مدينتهم بالصلح وسموها نيمة وأخذ أبناء أعيانها رهناً على طاعة أبائهم وحفظهم في برشلون (برشلونه) وهي على ساحل البحر الشامي في ايالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البرينه . وتقدمت جيوش عنبسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة أتون سنة ١٠٧ هـ وسنة ٧٢٥ م . وفي هذه السنة قتل عنبسة في احدى المعارك وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرانسا . واستلم قيادة الجيش بعده حذيفة ورجع بالعسكر الى الحدود الاسبانية فلاقى بها المدد الذي بعث به المرابطون في الاندلس فكر بهم على بلاد الافرنج والقى الرعب في قلوب

أهلها . وأوغل في الارض الشمالية وفي مملكة برغونية . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب اكثروا في هذه الحروب من اراقة الدماء وهدم البناء واحراق الكنائس والاديرة وتخريبها واتلاف الاموال وغصبها . ومنهم من يعترف بان العرب اخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الاسيوية الذين اتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيلا ودمروا بلادهم تدميرًا . ولم يزل الفرنساويون ينسبون الى العرب تخريب كل خرابة يشاهد أثرها في الاراضي الجنوبية من فرنسا . ويظهر من تواريخ الافرنج ان العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها الى ايالات وجعلوا الارض التي على جانبي البرينة في فرنسا واسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سيردانية وهي اليوم عبارة عن قطالونيا في اسبانيا وعن ولاية البيرينة الشرقية في فرنسا وكان الوالي عليها قائدًا من البربر مثل طارق بن زياد يسمية الافرنج مونيزا فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فأصبح في جبال البيرينة حاجزًا امام غزاة المسلمين فاغتاظوا من هذا الاتفاق وأظهروا ميلهم لعبد الرحمن الذي كان استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة . وكان عبد الرحمن من أصحاب عبد الله بن عمر متخلقًا باخلاق الخلفاء الراشيدين وأكابر الصحابة والتابعين حريصًا على اعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع أقطار الارض فكان يجتهد في تحقيق أمال موسى بن نصير والاستيلاء على اوروبا والوصول منها الى القسطنطينية . فعينه الخليفة هشام واليًا على الاندلس سنة ١١٢ هـ اوسنة ٧٢٠ م فدخل بالعسكر مدينة بويسردا وهي عاصمة ولاية سيردانية وقتل القائد المتفق مع أود وبعث بزوجته وهي بنت الدوق الى دمشق وقيل بل انتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزيا وحياء . وكانت مدينتا نيم ومون بيليه تابعتين للمسلمين فتقدم عبد الرحمن بالعسكر الى ضفاف الرون وعبر الى شاطئه الايسر والقى الحصار على مدينة آرل فانجدها الفرنساويون بمفرزة من العسكر وحميت نار الحرب وكثر فيها عدد القتلى حتى امتلأ النهر بأجسادهم ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعدًا في الشمال والقى الحصر على مدينة أفينون وافتتحها وهذه المدينة هي التي صارت في

القرن الرابع عشر للميلاد مركزًا للبابوية بدلاً عن رومة واستمرت تابعة للباباوات الى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة ١٧٩١ م .

وكانت فرانسا اذ ذاك في حكم الملوك الذين هم أواخر سلاله مير وفينجيان ويلقبون لبطالتهم وعطالتهم (فينيان) اي الذين لا يعملون شيئًا بل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة قومبينيه وهي في شمال باريس وفيها حصات ملاقاة قيصر الروس في زيارته الاخيرة لفرانسا . فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك الا مرتين في السنة مرة في شهر مارس وأخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من أعيان الافرنج او لملاقاة السفراء فاذا انعقد المجلس أركب الملك في كارة يجرها ستة رؤس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وانما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتي به الى المجلس ليصدق على المقررات التي يتخذها ناظر السراي او أمير الامراء وهو في ذاك التاريخ دوق اوستراسيا المسمى شارل مارتيل وكانت بقية الامراء أشبه بالمستقلين في اماراتهم يبغضون بعضهم بعضًا وكلمتهم متفرقة . ولو دخل عليهم موسى ابن نصير سنة ٩٢ هـ حينما افتتح اسبانيا لامتلك أوروبا باجمعها ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الاسلامي . غير ان الافرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية وكانوا يترقبون ورودهم من شرق أوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينه أخذهم الرعب فانضموا بأجمعهم الى أمير الامراء شارل مارتيل وكان أشدهم بأسًا وادهاهم سياسةً وأحسنهم رأيًا وعقلاً . فلم يدر عبدالرحمن بان الوقت فات على فتح بلاد الافرنج وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وأفريقية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرانسا ومر بهم من رونسيفو وهو ممرضيق في جبال البيرينة تمرُّ منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه . فمنه مرَّ هنيبال القائد القرطجني ومنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب . ومنه مرت جيوش نابوليون حينما فتح اسبانيا ومنه مرَّ فيكتور هوكو في ذهابه لاسبانيا وإيابه منها . فمر

رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في اسبانيا وبايون في فرانسا وهي التي سماها العرب « بيونه » ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلومترًا الى منتهى الحدود الفرنساوية ثم يسير على الخيل والعجل ١٥ كيلو مترًا أخرى فيصل حاق الوادي المسمى رونسيفو. فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لارض غسكونيا التي سموها غشكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه والاحراج والقسم الساحلي منها أشبه بتهامه من جزيرة العرب ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الافرنج. غير ان الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتلعها الرمال المحرقة واما المياه التي تسيل في رمال تهامة الافرنج التي تدعى لاند فتروى أرضها وتكثر عشبها وأشجارها

فظل عبد الرحمن سائرًا في هذه الاراضي المخصبة آمنا على عسكره ودوابه من العطش حتى بلغ نهر غارون المار لطولوز وبوردو وعرضه ربما يقرب في بعض الاماكن من عرض النيل. وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو ٤٨٧ مترًا فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحو مائة متر. فلقي عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسكر من قبائل الواسكون وبقيه أهالي اكيتانيا وانتشب القتال بين الفريقين وكانت معركة شديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره وتحصنهم في قلعة بوردو فلحقتهم عبد الرحمن وحصر المدينة وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره فكانوا يسمونها مدينة برغشت واصبح مابين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي دارًا للاسلام تلقن فيه الشهادة ويعلم القرآن. وهذا القسم العظيم من اوروبا قد أصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنساويون ويسمونها أيضًا قناة لانغيدوق باسم الايالة القديمة. والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتمر ببوردو ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكب مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي. وهم يتحدثون اليوم في توسيع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قنال السويس وتستغني عن المرور في جبل طارق والطواف حول اسبانيا

فانتشر خبر فتح بوردو في بلاد الافرنج ودخل الرعب في قلوب الناس وفرح اكثرهم بفشل الدوق أود لمظالمه — لان المظلومين من الاهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يحكمون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسومونهم أنواع العذاب لمنافعهم واغراضهم . ولذا كان الكثير منهم يهرعون لعبد الرحمن ويشوقونه للدخول في بلادهم واجراء العدالة الاسلامية فيما بينهم . اما الدوق أود فلما رأى ذهاب ملكه هضم نفسه واستجار برقيبه شارل مارتيل وطلب نصرته رغم بغضه اياه لان الدوق أود وان لم يرق الى رتبة ملك الا انه كان مستبداً في اكيتانيا كالملك يفعل فيها ما يشاء ويختار وهو ذو اصالة وينتسب الى قلوفيس مؤسس سلالة ميروفينجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الافرنج وعموم فرنسا . فأصالته كانت فائقة على اصالة شارل مارتيل لان شارل لم يولد من زوجة شرعية وانما زنى بأمه ببين دوق اوستراسيا فولدته وكبر حتى خلف والده في مسنده وتغلب على ملوك واستراسيا ونوستريا وبورغونيا من آل قلوفيس حفيد ميروفه وكان في الظاهر أمير الامراء وناظر السراي الملوكية وفي الباطن صاحب الامر والنهي في عموم فرانسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة اكيتانيا . فلما استجار الدوق اود بشارل اجابه : دعهم الآن فانهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء الا أبادوه وفيهم حمية تغنيهم عن التدرع بالدروع وفيهم شجاعة تكفيهم عن التحصن في داخل القلاع ولا يزالون على ذلك الى ان تمتلئ أيديهم بأموال الغنائم فاذا تنعموا بنعيم الدنيا وذاقوا لذائذ الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانقسموا وتفرقوا فحينئذ نهاجمهم ونخرجهم من ديارنا » . وكان الامر كما قال . فان عبد الرحمن بعد فتحه بوردو رأى الاهالي مائلة اليه ووعدوه بالتسليم والانقياد وشوقه بعض رؤسائهم الى فتح تور وبوانيه لما فيهما من الاموال والخيرات لان البلاد لم تكن في ذلك الوقت غنيه ومعمورة كما هي اليوم وانما الاموال كانت مدخرة في الكنائس والاديرة وقصور الحكام الجبابرة . فتجاوز عبد الرحمن بالعسكر نهر غارون ووطىء بخيله ورجله تلك الاراضي المخصبة والكروم التي يعصر فيها أحسن خمر في الدنيا وعبر نهر دوردونيا وهو

يجتمع في نهر غارون بقرب بوردو ويسميان حينئذ نهر جيروند كما يجتمع الفرات ودجلة ويقال لمجتمعها شط العرب . ويصب لاجيروند في المحيط الغربي عند مدينة روايان الشهيرة بحماماتها البحرية والتي ينسب اليها سمك روايان المشابه للسردين . وتسمى ضفة لاجيروند اليسرى من بوردو الى البحر ارض ميدوق وفيها شاتو لافيت وشاتو لاتور وشاتو مارغو وجميع كروم العنب والقصور التي يعصر فيها أطيب الخمر وتلى اسماؤها المتنوعة على الزجاجات التي تباع في أوتيلات الازبكية وتفتح على على موائد أعاظم الرجال . وعلى شاطيء نهر غارون قبل دخوله بوردو أرض سوتيرن وفيها شاتو ايكيم وبقية القصور التي يعصر فيها الخمر الابيض الذي يشرب في أوائل الطعام عند اكل لحوم السمك

ولما وصل عبد الرحمن مدينة انكوليم وجد جيشاً من الافرنج ففرق جمعهم ودخل المدينة منصوراً ظافراً وفي غربيها مدينة كونياك المنسوب اليها خمر الكونياك المعروف . وظل عبد الرحمن سائراً بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه وكانت تجتمع تجري من تحتها الانهار بالنسبة لصحاري افريقية ولجزيرة العرب . والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم واولادهم حتى وصلوا مدينة بوانيه ففتحت لهم ابوابها . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب سلبوا ما في كنيستها من أواني الذهب والفضة والاقمشة المزركشة . والمنصفون من هؤلاء المورخين يعترفون للعرب بالعدل والحق والرفق بالمغلوبين . ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بايالة فينا وهي التي مركزها بوانيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الاتراك وأقاموا عساكرهم المظفرة على أبوابها . وفي جنوب ايالة فينا ايالة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج . وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة تور وهي على نهر لوار المنصب في المحيط . وألحق اكثر من نصف فرانسا بممالك الدولة الاموية الحاكمة اذ ذاك على الهند وما وراء النهر الى كاشغر والصين وتركستان . وكان الفاتح لها سنة ١١٩ هـ اسد بن عبد الله القسري فانه دخل بغزاة المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئاً كثيراً

فمنتهى الحدود التي وصل اليها العرب في اوربا هي نهر لوار ومدينة تور . وفي شرقيهما مدينة ديجون ثم مدينة بزانسون . فالخط المار بهذه النقط يقسم فرنسا الى قسمين شمالي وجنوبي . والجنوبي باجمعه دخل في ملك المسلمين وأقاموا في بعضه قليلاً وفي بعضه كثيراً واستسلموا كثيراً من أهله وتزوجوا ببناتهم وأعقبوا منهم ولم يزل لاهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سيماء الوجوه

قال المؤرخ الانكليزي جيبون في ذكر حوادث سنة ٧٤٢م « تقدم العرب في أوربا اكثر من ثلاثمائة مرحلة (lieues) من صخرة جبل الطارق الى مصب نهر لوار كلها مظفريات ولو تقدموا ثلاثماية مرحلة اخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق أوروبا أو جبال ايتوس من انكلتره ولسهل عليهم عبور نهر الرين المار بالمانيا كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل ولكان الاسطول العربي من جهة أخرى دخل نهر التميس بلا محاربة بحرية — لعدم وجود اسطول انكليزي في ذلك الوقت يضاهي أسطول مصر وسوريه او أسطول تونس — ولرأينا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس اوكسفورد ويفقهون افراد أمة الانكليز المختنتين ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي . فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنساويين من سلالة ميروفينجيان . » آه

وذلك ان شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس الا ٢٣٤ كيلومترًا حشد اليه العساكر الجرارة من القبائل الشمالية الالمانية وهم يمتازون عن سكان الاياالات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة الاعين وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطعن والضرب ولم يزالوا متصفين بهذه الاوصاف الى يومنا هذا ولذا اختار مقام السرعسكرية منهم المعلمين للمكاتب الحربية في الاستانة مثل غوالج باشا وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسوية

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال وانتشب القتال بين

الفريقين وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير اخصامه وانجبر اخيرًا على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان واصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى يومنا (موسه — لا — بانايل) ويراه المسافر من بوردو الى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومترًا عن بواتيه شمالا اي على الضفة اليمنى لنهر كاين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على اهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذرًا . ففتح عبد الرحمن الحرب وانزل للميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فانشغلت افكار المسلمين على اموالهم وعيالهم وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين اول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ ﻫ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتيل واسترجع مدينة افينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره قفرا لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم احد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل دوسنت غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديوانًا عنوانه اخراج العرب من فرنسا وجعل فيه البطل الغوار في هذه الحروب شيلو براند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلاً لم يحقق التاريخ وجوده بين ابطال تلك الحروب

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرنسا وايطاليا وعموم اوروبا ويروون عن شجاعته احاديث ملفقة . ويزعمون ان بلطتهُ او فأسه المسمى مارتو أومارتل قتل ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على التحقيق لم يكن فيها تغلغل كبير على عساكر الاسلام ولو بقي في شارل بعدها قوة لاخرجهم من ناربون ورمى بهم الى ما وراء جبال البيرينة وحصن منافذ الجبال وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطع ذلك . واستمر العرب في جنوب فرانسا حقبة

شارل مارتيل يحارب العرب في فرنسا

من الزمان سيما في اطراف مارسيليه ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيرًا من اثارهم واوانيهم الخزفية . واليهم تنسب (جبال المور) وهي في شمال طولون ومارسيلية . كما نسبت اليهم قسطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل هو الحصن او القلعة ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل . فقسطل سارازين معناها حصن العرب وقيل غير ذلك والله أعلم

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفآء الامويين قد عين على فريقية عبيدة بن عبدالرحمن بعد استشهاد واليها بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية وهي جزيرة سيسليا التابعة اليوم لايطاليا . غير ان ولاية عبيدة لم تطل بل عزل ونصب مكانه عبيد الله بن الحبحاب وهو الذي زين تونس بالمباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها دار صناعة للسفن أي (ترسانة) كما يسميها الأتراك او (شانية) كما يقول الافرنج . فلما بلغ عبيد الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث واليًا على جزيرة الاندلس عبد الملك بن قطن فاصلح حال الجيش وزوده وساقه على فرانسا سنة ١١٧ هـ سنة ٧٣٥ م

فاستردوا الايالات الجنوبية التي في اطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف اود وعبروا نهر الرين وضبطوا ايالة بروفانس باجمعها سنة ١٢٠ هـ اوسنة ٧٣٧ م من حاكمها مورونت ومركزه اكس في شمال مرسيليه . وظلوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا ايطاليا واغاروا فيها على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان فاتفق ملكها لوي بران مع المتغلب على ملك الافرنج وهو شارل مارتيل دوق اوستراسيا وناظر السراي الملوكية وارجعا العرب الى قرب جبال البيرينة سنة ١٢٢ هـ اوسنة ٧٣٩ م ولم يقدرا على اخراجهم من نربون ولا من قرقسون . ثم ان عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية عين عقبة بن الحجاج على الاندلس فحضر اليها واستلم زمام الامر فيها فحصلت فتنه وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري فذهب عقبة بن الحجاج الى قرقسون في فرنسا وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك الى ان مات ودفن في تربة قرقسون . فغضب هشام وعزل عبيدالله وولى مكانه كلثوم بن عياض والياً على افريقية وبعث معه اثني عشر الف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر . فقتل كلثوم في المغرب الاقصى في واقعة جرت له مع البربر ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الاندلس وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى مكانه . فبعث هشام لافريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيروان سنة ١٢٤ هـ اوسنة ٧٤١ م واصلح ما فسد في قبائل افريقية والغرب الاقصى وبعث ابا الخطار الكلبي والياً على الاندلس فورد اليها ونزل قرطبه وفرق عساكر الاسلام في البلاد فانزل الدمشقيين في البيرة (الويره) وهي الولايه التي عاصمتها غرناطه وتكثر فيها المياه والغوطات والرياض ومدينة غرناطه مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حداره (دارو) المنصب في نهر شنيل وهو

يسمي الافرنج عرب اسبانيا مور (Maurs) نسبة الى موريتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر ومراكش ويسمونهم ايضاً (Sarrasins) سارازين واختلفوا في اصل هذه الكلمة فقال بعضهم من سارقين العربية وقال آخرون بل نسبة الى ساره زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام لانهم أولاد جاريتها هاجر ام اسماعيل جد العرب وقال غيرهم انها تحريف شرقيين

ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفير) المار باشبيليه ولذا دعاه العرب نهر اشبيليه وفي غرناطة قصر الحمرآء الشهير وغرناطه في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها وأما خط الحديد بينهما فمسافته ٦٩٦ كيلو مترًا لذا أطلق على البيرة وغرناطة دمشق . وانزل الحمصيين في أشبيليه (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير وفيها القصر المشهور عند الافرنج باسم (القازار) وكان دار الملك بني عباد . ولذا أطلق على أشبيليه حمص . وانزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الابيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فأطلق على تلك النواحي قنسرين . وانزل اهل الاردن في مالغه (مالاغه) وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) واليها ينسب الخمر المعروف باسم (مالاغه) . وانزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة شريش (اكسيرس) وما جاورها وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلو مترًا عن البحر المحيط واليها نسب كثير من الادباء فقيل لهم الشريشي ومنهم شارح المقامات وكتابه مطبوع في مصر وينسب اليها اليوم الخمر المشهور باسم (شري) و (اكسيرس) وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشتت عساكره واخذ ملكه . وانزل ابو الخطار الكلبي العصبيين في تدمير وهي الايالة المشتملة على مرسية وهي على نهر سفوره تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور ٣٥ كيلو مترًا وبجانبها سهول هو ثرته المشابهه لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الانبات ولذا أطلق عليها مصر ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والقنوات وبينما كان المسلمون في الاندلس ينظمون شؤنهم ويستعدون لفتح بلاد الافرنج

نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب بلاد العرب (Arabie) الفرنساوي تأليف نوئيل ديفرجه (Noel Desvergers) المطبوع في باريس سنة ١٨٤٧ ونقل هو عن المستشرق (Reinaud) مؤلف كتاب هجوم العرب على فرانسا المطبوع سنة ١٨٣٦ في باريس واعتمد في ما كتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الاهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملوكية ولاسيما على تاريخ المقري وعلى تاريخ النويري وغيرهما

ونشر الدين الاسلامي فيها واذ ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الاسلامية ودار خلافتها واختلت أمور الدولة بعد وفاة هشام وجلوس الوليد (٨٤ — ١٢٦ هـ) ابن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني أمية . وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠ — ١٢٦ هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم أخوه ابراهيم . ثم رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم وهو مروان الحمار (٧٠ — ١٣٢ هـ) ابن محمد بن مروان بن الحكم ولم ينتظم الامر ولا لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتن في أيامهم ولذا لم تتقدم الفتوحات في بلاد الافرنج

١٣ — داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

اما فرانسا فاستيقظت بسبب هذه الحروب من غفلتها واجتمعت كلمتها على شارل مارتيل ناظر سراي الملوك من آل قلوفيس حفيد ميروفه فاستبد بالامر وصار الآمر الناهي في المملكة وزال نفوذ الملوك من سلالة ميروفينجيان وأصبحوا كالخلفاء العباسيين في آخر أمرهم . ولم يستطع شارل مارتيل ان يملك على الفرنساويين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعديه على املاك الاديرة والرهابين ولكنه هيأ الملك لولده ولحفيده من بعده . واما هو فلم يُرض بعمله المسلمين ولا النصارى لانه ضبط أوقاف الاديرة والكنائس ليجهز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فأغضب بذلك الاساقفة والرهابين المتمتعين بهذه الاموال فلم يغفروا له هذه السيئة وأغمضوا العين عن جميع حسناته عليهم وحكموا في مجمعهم الرهباني (قونصل) في فرانسا بكفره وخلوده في نار جهنم ورآه أحد أوليائهم بعين الكشف وهو يعذب في النار والاساعي تنهش في جثته المتنه . فشارل مارتيل واضع أساس الدولة الثانية في ملك الافرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصارى . ولما مات قام بالامر بعده ابنه بيبن القيصر وحارب قبائل الجرمان في المانيا وقبائل اللومبارد في ايطاليا وكانوا معادين للباباوات في رومة فاكتسب بذلك نفوذاً وقوة وانتخبته قبائل الافرنج ملكا عليها وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتتويجه فدهنه وتوجه القديس بونيفاس أسقف مايانس سنة ٧٥٢ وانقرضت دولة ميروفينجيان بعد ان

ملكت (٤٤٨ — ٧٥٢م) ثلاثة قرون وسميت الدولة الثانية قارلوفينجيان نسبة الى شارلمان بن بيبن القيصر وحفيد شارل مارتيل وملكت الدولة الثانية (٧٥٢ — ٩٨٧م) قرنين ونصف قرن تقريباً . وفي سنة ٧٦٠ م أو سنة ١٤٣ ﻫ اغار بيبن القيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع ايالة سبتمانيا فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب انقراض الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية مقامها . فقتلوا بني أمية واستخفى من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ودخل الاندلس سنة ١٣٩ ﻫ او ٢٥ ايلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩م فأطاعه بعض المسلمين فيها واستولى على أشبيلية وجعل قرطبة دار المملكة وأخضع لحكمه جميع جزيرة الاندلس ونكل بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين — فيفهم السبب الذي مكن الافرنج من استرجاع نربون وقرقسون

ولما مات بيبن سنة ٧٦٨ م وسنة ١٥١ ﻫ جلس مكانه على كرسي ملك الافرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢ — ٨١٤ م) ومعناه شارل الكبير فنسبت اليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج وقيل لها (قارلو فينجيان) أي آل قارلو لان اسم شارل يلفظ بصور مختلفة حسب اللغات واللهجات فالالمان يلفظونه قارل وعند الاسبانيول قارلوس وعند الانكليز چارلس بالجيم الفارسية . ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من ايطاليا وكان بين ملوكها وبين باباوات رومه ضغائن وعداوة فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه ثم فتح باغاريه وصاقسونيا وهما من ممالك المانيا واخضع ايالة اكيتانيا التي كانت ميداناً ترمح فيه غزاة المسلمين . فجمع شارلمان في حكمه بين فرانسا والمانيا وايطاليا ومزج الاقوام الجرمانية بالاقوام الرومانية وهم الذين كانوا في حكم دولة الرومان

ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع أخيه اتباعاً للقواعد المرعية في ذاك الزمان وهي تقسيم الملك بين الاولاد ففي سنة ٧٧١م استقل بالملك وجعل عاصمته اكس لاشابل وهي على نهر الرين في المانيا وزينها بالمباني والقصور ولذا يعتبره الالمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنساويون . وفي سنة ٧٧٨ م وسنة ١٦٢ ﻫ

تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينه من ممر رونسيفو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور ومر منه قبلاً هنيبال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين وهو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزن على فرانسا من جهة البحر الشامي عن طريق (بو يسيردا) و (نربون) فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف ايبر حتى بلغ مدينة سرقسطه مركز ولاية اراغون والقى الحصار عليها وكانت بيد المسلمين . فبعث اليه عبد الرحمن الاول سنة ١١٣ — ١٧١ هـ (٧٣١ — ٧٨٧ م) الملقب بالعادل . بجيش منظم ظرد عساكر شارلمان من اسبانيا وارجعها الى ما وراء البيرينه . وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين حباً في العدل الاسلامي وكرهاً في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع انهم على غير دينهم وانتقموا من شارلمان وجنوده وهو يدين بما هم يدينون به

والدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة للخير وهو يقود العسكر اللجبا

فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتنم أهالي نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصة وانقضوا عليهم وهم في ممر رونسيفيو وابادوهم عن آخرهم وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة الى ايالة بريطانيا في غرب فرانسا ورفيقه اوليفيه ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها وهي عند الفرنساويين كقصة عنتر عندنا لا بل كقصة بني هلال او الزير واسترد عبد الرحمن العادل وهو المعروف بالداخل ولاية أراغون وقطالونية واسترد ابنه هشام (١٤٠ — ١٨٠ هـ) مدينة جيرونيه ونربون وجميع ايالة سبتمانيا سنة ٧٩٢ م (سنة ١٧٦ هـ) واستخدم الاسرى في بناء جامع قرطبة وكان أبوه قد باشر عمارته . فنصب شارلمان ابنه لويس ملكاً على اكيتانيا وأمره بمحاربة العرب فكانت بينهما حروب على سفح جبال البيرينه من سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) وهي السنة التي توفي بها هشام وجلس فيها ابنه

الحكم خلفاً له وخرج عليه عماه سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن وثحار بوامدة وكان النصر للحكم على عميه ودامت الحروب مع الافرنج الى سنة ١٩٧ ﻫ (٨١٢ م) وأخذ الافرنج في هذه الحروب ولاية نافارا وسبتمانيا وجزءًا من قطالونيا وهو المشتمل على مدينة برشلونه التي على ساحل البحر الشامي . فشارلمان لم يتمكن من اسبانيا ولكن حكمه كان نافذًا في عموم أوربا الغربية وكان البابا وعموم الكنيسة يميلون اليه ويرغبون في اعادة نفوذ امبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الامبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس والبسه تاج الامبراطورية في آخر القرن الثامن اي سنة ٨٠٠ م (سنة ١٨٤ ﻫ).

وكانت الخلافة العباسية في بغداد بلغت منتهى العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد فأخذ شارلمان يتقرب منه وبعث اليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه اسحق وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل الى الافرنج اعداء الامويين فأحسن ضيافة الوفد الافرنجي وأكرم مثواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس وبعث الى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض أحجاره محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم . وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة اي في سنة ١٩٢ ﻫ (٨٠٧ م) وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين اي سنة ٨١٤ م وجلس في مقامه ابنه لويس الى سنة ٨٤٠ م ثم انقسمت المملكة الى ثلاثة أقسام المانيا وفرانسا وايطاليا وضعف حال ملوك فرانسا وهجم عليهم الاقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونوروج والدانيمارك وأسسوا في شمال فرانسا دوقية نورماندية وانقسمت المملكة الى دوقيات وكونتيات وكان حكامها أشد نفوذًا من الملك . وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج الى ما صارت اليه السلالة الاولى فاستبد بالامر دوق فرانسا كما استبد قبله دوق اوستراسيا وفعل هوغ قابت ما فعله ابن شارل مارتيل واحدث السلالة الثالثة في

مملكة الافرنج وهي سلالة قابتيان . وملكت هذه السلالة الثالثة من سنة ٩٨٧م الى سنة ١٤٢٨ م وفي زمنها ظهرت فرانسا للوجود وسميت مملكة فرانسا نسبة الى هوغ قابت دوق فرانسا وانتقل الملك بعد ذلك الى فرع ثان من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم الى فرع ثالث وهو آل بوربون

١٣ — فتوح المسلمين في جنوب أوربا والحروب الصليبية

ثم ان المسلمين عدلوا عن فتح فرانسا ولعلهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الاقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها اذذاك ولصعوبة المرور من جبال البيرينة وهي أشد بردًا من جبال لبنان التي يقول فيها المتنبي

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهي الشتاء وصيفهن شتاء

ومالوا الى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقه ومينورقه وأفبس وما يتبعها سنة ٨٢٠ م (سنة ٢٠٥ ﻫ) وكانوا يسمونها (مايرقه) و (منرقه) ويابسة واستمروا فيها الى سنة ١٢٣٢ م . واستولوا سنة ٢٢٦ ﻫ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم الى سنة ٢٣٦ (٨٥٠ م) . وأغاروا على سواحل مرسيليا مرارًا وأسسوا سنة ٢٧٦ ﻫ (٨٨٩ م) مستعمرة فراقسينه فيما بين وينيس طولون وكان الفينيقيون اسسوا قبلهم مستعمرة في جوار موناقو . ومكث المسلمون في فراقسينه طول القرن العاشر وتزوج بعضهم بنساء تلك الايالة الفرنساوية واشتغلوا بفلاحة ارضها حتى اصبحت زاهية بحضارتهم . ثم جالوا سنة ٣٢٤ ﻫ (٩٣٥م) في اقليمي تارنتيزه ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبها المجر قبل ذلك ومدوا نفوذهم سنة ٣٣١ ﻫ (٩٤٢ م) على فريجوي وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرانسا ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور) ومدوا نفوذهم على ايطاليا أيضًا . فان بني الاغلب استولوا على جزر سيسيليا (صقلية) ومالطة وسردانية وجميع القسم الجنوبي من ايطاليا في حدود سنة ٢١٣ ﻫ (٨٢٨ م) الى سنة ٢٦٥ ﻫ (٨٧٨ م) ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمرانهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة وكانت مدينة امالفي ومدينة سالبرم وهما في جنوب نابولي

(وكتبوها نابل) زاهيتين بحضارتهم وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يشاهد فيهما اثر العرب وبقايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال يقول : ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار . واستولوا على أوستيه وكانت مينا رومية العظمى وهي بقرب مصب نهر التيبر وعلى بيزا ذات البرج المائل وكانوا يسمونها (بيش) وعلى جنوه التي في شمالها وبقي المسلمون في جزيرة (سردانيه) سردينيه الى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) وفي طارانت التي في جنوب ايطاليا الى سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) وفي سيسيليا الى سنة ١٠٧١ م وفي بيزا الى سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) وفي جين (جنوه) الى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) . (انظر خريطة مملكة العرب في اطلس شرادر الفرنساوي المطبوع أخيرًا في باريس)

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي اغار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الايالات الفرنساوية — لا ليون التي في شمال اسبانيا الغربي وتكتب (Léon) ويكثر ذكرها في تواريخ العرب — هل كان في عهد شارل مارتيل فقط أم في عهده وبعد ذلك أيضًا حينما دخلوا من سواحل طولون وتقدموا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس . ولكن المؤرخين متفقون على ان المسلمين ضبطوا ايالة دوفينة وهي في شمال بروفانس على ضفة الرون اليسرى وضبطوا في شمالها أيضًا ايالة بورغونية وسموها (ارض بورغونة) وايالة فرانش كونتة وايالتي فينا — وفينا هذه ايالة في وسط فرانسا الغربي بخلاف سميتها عاصمة اوستريا والمجر وكان حاصرها الاتراك — وضبطوا في فرانسا جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والمدن التي في تلك الايالات . واهمات هذه المدن هي : ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرانسا بعد باريس ثم ماقون واليها ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونيه ، وشالون التي على نهر السون ، وبون وسماها العرب (بونة) واوتون واحترقت فيها كنيستان عظيمتان حينما هاجمها العرب كنيسة سان ناظير وكنيسة سان جان وكذا ديرسان مارتن ، وديجون وهي منتهى ما أخذوه في الشمال من المدن العظيمة . وفي شرقي ديجون وبالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو

وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس — ليون — البحر المتوسط أي مرسيليا وما جاورها من الموانى البحرية . ولم يجد العرب اموالاً كثيرة في غزواتهم لان البلاد لم تكن في الثروة والعمران التي هي عليها اليوم ولكن مقصدهم الاصلي كان اعلاء كلمة التوحيد ودعوة الامم بقولهم « تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبدَ إلاّ اللهَ ولاَ نُشرك بهِ شيئاً ولاَ يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ . »

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الاسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية . الا ان المؤرخين اصطلحوا على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الامم الاوروبية وبين المسلمين من الامم الشرقية وامتدت من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر للميلاد وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام . واتخذ المحاربون من الامم الاوروبية الصليب شعاراً لهم ونقشوه على أثوابهم وجلودهم ولذا قيل لهم الصليبيون . وعدة الحروب الصليبية ثمانية وهي :

الاولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩ م) — الحرب التي دعا اليها بطرس الناسك وقرر اجراها البابا اوربين الثاني في المجمع الروحاني المنعقد سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون فيران وهي بالغرب من مدينة ليون في فرانسا . وكانت النتيجة ارسال جيشين للشرق احدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتيه وكان مؤلفاً من اناس لا خبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر فمات اكثرهم في الطريق وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الاناطول . والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غود فروا دوبوليون دوق ايالة اللورين . عبروا بوغاز لدردنيل واستولوا في بر الاناطول على ازنيق وطرسوس وهي مينا اطنة وعلى انطاكية وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية . ثم استولوا على القدس

وكانت تابعة لخليفة مصر العلوي وقتلوا فيها كثيراً والبسوا غودفروا تاج الملك . وذهب المستنفرون الى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء وقال المظفر الابيوردي أبياتاً منها :

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) الحرب التي دعى اليها القديس برنار وقادها قونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرانسا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها ورجعوا عنها

الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٣ م) الحرب التي دعى اليها غليوم أسقف صور بسبب استرداد صلاح الدين الايوبي للقدس . وقادها فريدريك بار باروس امبراطور المانيا من جهة وفيليب اوغوست ملك فرانسا وريشار قلب الاسد ملك انكلترة من جهة اخرى . فالاول غرق في النهر بعد أخذه قونية . والآخران اخذا قلعة عكا وعقدا الصلح مع صلاح الدين

الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤ م) الحرب التي دعى اليها فولك وقادها بغدوين وهو بودوين التاسع كونت ايالة فلاندر وكانت ايالة مستقلة بين فرانسا وبلجيكا . فلما وصلت هذه البعثة الى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية لنصرته على أخيه وكان قد اراد التغلب عليه فأجابت دعوته وأيدته على كرسي مملكته وبعد وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد أن خربوا المدينة وأتلفوا مافيها من الآثار النفيسة والمباني الظريفة واستمرت دولة اللاتين في القسطنطينية ٥٧ سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١)

الخامسة (١٢١٧ — ١٢٢١) الحرب التي أشهرها جان دوبرين ملك القدس واندره الثاني ملك هونغاريا وذهبوا فيها الى مصر وعادوا منها خائبين

السادسة (١٢٢٨ — ١٢٢٩ م) الحرب التي قادها فريدريك الثاني امبراطور المانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دوبرين . فعقد مع الملك الكامل

معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس

السابعة (١٢٤٨ — ١٢٥٤ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرانسا ايفاءً بنذر نذره . فخرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الايوبية في محاربة المنصورة واسره فأخلى دمياط وسلمها للمسلمين فكاكاً لاسره

الثامنة (١٢٧٠ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرانسا الملقب بالقديس لويس ومات فيها امام اسوار تونس الخضرا . فاسترجع المسلمون حينئذٍ مدن فلسطين وسوريا من الافرنج واحدة بعد الاخرى . وكان آخرهن فتح عكا سنة ١٢٩١ م وانتهت بذلك الحروب الصليبية

وكان لهذه الحروب نتيجتان احداهما مادية عسكرية والاخرى معنوية أدبية فالنتيجة المادية رجوع الافرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقفل وتخليتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي « الانتظام » و « الترقي » . ويسميهما الافرنج (اوردر وبروغره) . قال رينان « حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على أبواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفين الاولى انحطاط العالم الاسلامي والاخرى نهوض العالم المسيحي لان العلوم الاسلامية لما لفحت جراثيم الحياة في جسم البلاد الاوربية انطفأت جراثيم حياتها . وأخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علوًّا وهبوطاً »

سارت مشرقة وسار مغربا شتان بين مشرق ومغرب

١٤ — ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة ان الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب أرض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وحرثوا أرضها وتزوجوا ببناتها وتاجروا مع أهلها وعمروا مدن نربون (نربونه) وقرقسون (قرقشونه) وفراقسينه واخذوا الاسرى ن الافرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على الف وثلاثة وتسعين

عمودًا وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحمراء والقنطرة . فكانت الافكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانا على طرفي نقيض . وحيث كان المسلمون في ذاك العصر أرقى حضارة وأدبًا من جيرانهم المسيحيين كانت الافرنج تقتبس من معارف المسلمين وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني . واسمه الذي سماه به أبوهُ جربر (٩٣٠ — ١٠٠٤ م) فانه بعد ان حصل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أوريلاق التي ولد فيها وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طلب العلم الى الاندلس فقطع عقاب البيرينه والوادي الكبير المار بجوار قرطبة ومن اشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة اشبيلية ثلاث سنين وعاد لاوروبا متبحرًا في العلوم والمعارف حتى حسبه الناس ساحرًا واتخذه الملوك مؤدبًا لاولادهم وتقلب في المناصب حتى احرز رتبة البابوية . وقيل انه أول من ادخل لبلاد الافرنج مايسمونه الارقام العربية وتسميه الارقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد وبمنزلتها على عدد آخر . وكانوا لذاك العهد يستعملون الاحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الابجدية

واقتفى طلاب العلم اثر هذا البابا الحكيم وكذا المتحلون منهم بالشعر والادب كانوا يقلدون شعراء العرب وأدباءهم . وكان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا وشمال اسبانيا يحيدون عن تعلم اشعار اللاتين ويكبون على تعلم اشعار العرب وأزجالهم . وكان قراؤهم في القرن الحادي عشر للميلاد ينشدون الاناشيد والمدائح العربية وهم يستعطون على الابواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم مايقولون وانما شوقًا منهم وحنانًا للالحان والانغام والقوافي الرنانة كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الاسلامية منها وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة

وذكرنا فيما تقدم ان لغة « رومان » وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا والفرنك انقسمت الى شعبتين (١) لسان اوق تكلم به أهل الجنوب لا سيما

سكان بروفانس (٢) لسان اويل تكلم به أهل الشمال لا سيما سكان جزيرة فرانسا وهي الايالة التي عاصمتها باريس وكان في الشمال شعراء يقال لهم (تروفير) وفي الجنوب شعراء يقال لهم (تروبادور) . فالتروبادور الذين كانوا في ايالة بروفانس هم صنف من المداحين يطوفون من قصر لقصر ومن قلعة لاخرى يغنون قصائدهم ويمدحون الامراء وذوي الوجاهة ويسمون أدبهم بالعلم المطرب . ولم تكن أشعارهم ذات قواف كاشعار العرب وانما لها بدل القافية مراكز ومواقف كالاشعار التي يتغنى بها رعاة الغنم . وكان لهم فن من الشعر يسمونه تنسون (Tenson) على شكل المخاطبات يشابه ما أوجده الاندلسيون من الفنون الشعرية . وأجمع العارفون على ان القوافي اول ما ظهرت في الشعر البروفانسال وانها مأخوذة من العرب . فالقافية عند الفرنساويين هي اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة وما يتبعها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج (Sage, Page) فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه (اسونانس) وهو اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة بقطع النظر عما بعدها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sage) وآرم (arme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر وأخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيريك . كما أخذوا عنهم في المنثور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم . وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات وتظريفات على أفسة القرى وخدمة الكنائس ليضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » . وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما أصله الاول من حكايات الفرس والهنود وترجمت الى العربية ثم نقلت للافرنجية . فلو كان الحكم والغلبة لاهل الجنوب المجاورين للعرب وللغتهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة الفرنساوية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الادب العربية . ولكن الحكم والغلبة كانتا لاهل الشمال وللغتهم المسماة « اويل » وكان شعراؤهم التروفير لا يعرفون غير اشعار

الحماسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاآت ليس له قافية وانما له (اسونانس) كما في أغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم الى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم التروفير ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لعب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم

١٥ — اقتباس الافرنج اقاصيصهم عن العرب

والحاصل ان الرومانيين لما فتحوا أرض الغول ادخلوا اليها مدنيتهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الافرنج على أرض الغول أخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية فنتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قيل لها « رومان » . وأقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبورغ وهو صورة القسم الذي اقسم به العسكر لاحفاد شارلمان حينما عقدوا معاهدة فيردون وقسموا مملكة شارلمان الى ثلاثة أقسام فرانسا وجرمانيا وايطاليا وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة ٨٤٣ م وسنة ٢٢٩ هـ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة . فهذه أول مرة دونت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية . ثم انقسمت لغة رومان الى لسان اويل والى لسان أوق . وانقسم لسان أويل وهو لسان الشمال الى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرانسا — وهي الجزيرة المحاطة بالانهار المشتملة على باريس وما في جوارها — فصارت اللغة الفرنساوية . ثم عم استعمال هذه اللغة في الآيالات الجنوبية وغلبت على لسان أوق سنة ٩٨٧ م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الافرنج وهي الدولة التي دامت الى حدوث الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية . وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرانسا فأطلق هذا الاسم على عموم المملكة وعلى اللغة

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الادب سابقاً لاتساع دائرة النثر كان

الكلام المنظوم أساساً الادب الفرنساوي . وأقدم نظم فيه هو « اغاني رولان » وتاريخ نظمها في النصف الاخير من القرن الحادي عشر وناظمها أو ناظموها مجهولون ولا دليل على انه تيرولد المذكور اسمه في آخر بيت منها . ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الاندلسيين . وذلك ان شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة وتتوج بتاج الامبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي على الاذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الافاق وتحدث الناس به ونظموا فيه القصائد وقصوا عنه القصص والحكايات وانشدوا الاناشيد وفعل الافرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد . غير ان فنون الادب الافرنجية لم تكن زاهرة كفنون الادب العربية بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون الى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والامراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى وانما كان يفهمها بعض الاساقفة والرهابين فنظمت (أغاني رولان) و (حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذلك العصر أي بعد شارلمان باكثر من قرن . وفي أغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنتر وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الافرنج وعرب الاندلس وجعلت رولان عنتر زمانه والحقته بنسب شارلمان وادعت بانه ابن أخيه وذراعه اليمنى . وذكر في هذه الاغاني ان سبب هزيمة رولان هو خيانة غانيلون . وذلك ان رولان بعث بتابعه غانيلون الى والي سرقسطة مركز ولاية أراغون بمهمة حربية وكان في ذهابه اليها خطر على حياته فاغتاظ هذا المأمور من أمره وانضم الى المسلمين ودبر في قتل رولان وانهزامه . فلما رجع رولان ببقية الجنود الى فرنسا ووصل مضيق رونسيفو في جبال البيرينه هجم عليهم أهالي نافارا وغاسكونيه المتفقون مع المسلمين في جيوش جرارة عدتها اربعماية الف فارس . وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه اوليفيه فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لنجدته فلم يصغ في بادئ الامر لقاله . ولما أراد ان يعمل برأي اوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الاوان وغلبهم العدو بكثرة عدده وامسوا مختبطين في ظلام النقع وقتل بعضهم بعضاً وضرب اوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطاء

لا عمد فجرحه وسببت موته فصورت تلك الاغاني موت رولان ثم موت اوليفيه وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الاسقف توربين عليهما وغفران ذنوبهما . واراد رولان قبل موته ان يكسر سيفه المسمى (دوراندال) لئلا يقع في ايدي اعدائه او يصل الى مارسيل Marcile والي المسلمين في سرقطة فلم يستطع كسر هذا السيف لانه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل ولعله من المعدن المسبوك منه صمصامة عنترة وذو الفقار علي رضي الله عنه وهو الذي قيل فيه لاسيف الا ذو الفقار . وقد تهور الافرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار وجعلوا القوة والشجاعة بأجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف ولم يزل اثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقيا الى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيفو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية اريحا من فلسطين وهو التل الذي احدثه على زعمهم جيش ابي زيد الهلالي حينما مروا بقرية اريحا وارادوا الصعود الى جبل القدس فنفضوا مخالي الشعير في اسفل العقبة فتكوم من الغبار الذي فيها هذا التل العظيم لانهم كانوا لا يحصون عدًّا لكثرتهم . هذا ما تتناقله الالسنة ويرويه الابناء عن الاجداد ولعل الباحثين في الاثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه اثرًا من الآثار كما لو بحث العارفون بطبقات الارض وبشكل الجبال لذكروا سببًا (لضربة رولان) في صخرة رونسيفو . ولرولان حصان كانه هو واجر عنترة بن شداد فرسا رهان . ولم يفت ناظم اغاني رولان ذكر الملائكة وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لاولى الامر وهم (السوزيرين) والتصلب في الدين المسيحي وبغض من لم يعتقدوا بما امر به وينتهوا عما نهى عنه بغضًا لوجه الله لا لعداوة دنيوية ولا لمال ودولة . وهذه الاغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية العصرية ومنها يظهر اعتقاد الافرنج اذ ذاك في الاسلام والمسلمين فانهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة الى عبادة الاصنام ويعدون من اصنامهم ابولون ولم يزل الكثير من اهل القرى الفرنساوية يعتقدون هذا الاعتقاد الى يومنا هذا

كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم . وكان لاغاني رولان شأن في عموم اوربا وفي انكلترة وترجمت في القرن الثاني عشر الميلاد الغة الالمانية ولغة السويد والنوروج

ومما نظم على نسق اغاني رولان حج شارلمان الى بيت المقدس وقصائد وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعتني في المستقبل بترجمتها ومطالعتها المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعتني الافرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية وطبعها وترجمتها ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم . وفي اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر اقبل شعراء الشمال ينسجون على منوال شعراء الجنوب ويقتبسون منهم المحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي العربية ووضعوا الالحان الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك دواوين ورسائل كثيرة لا حاجة لذكرها . ثم ظهرت الاشعار الهجوية والهزلية والملح والفكاهات مما هو على نسق كليلة ودمنة وضروب امثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات . فمن ذلك (رومان الثعلب) و (امثال ايزوب) و (رومان روز) وغير ذلك . وقيل للمنظوم من ذلك (الاغاني) او (اغاني القصص)

١٦ — اقتباس الافرنج العلوم عن العرب

ولما اختلط ملوك اوروبا وأمراؤها بملوك الشرق وامراء المسلمين في اثناء الحروب الصليبية رأوا بأعينهم ادباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم واطباءهم وحكماءهم سيما من كان منهم بمية صلاح الدين الايوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وعمارة اليمني الشاعر والطبيب الحاذق الذي طبب ريشار قلب الاسد فقدروا الادب حق قدره واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم . فألف بعض الرهبان السالكين طريقة القديس ديني (St. Denis) تاريخاً لدولة الافرنج . وكان ذلك على عهد لويس التاسع الملقب بالقديس وهو المتوفى سنة ١٢٧٠ م في تونس اثناء الحرب الصليبية الثامنة . فكان هذا التاريخ أول سجل لضبط وقائع ملوك الافرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكر شيء من أخبارهم وحروبهم . وداموا على هذا السجل الى ان

ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣ . وانشأوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب وذلك في القرن الثالث عشر وهي أقدم مدرسة طبية في أوربا بعد مدرسة سالبرن التي بجوار نابولي . وكانت الاندلس في منتهى عزها وحضارتها فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعربين . وفي سنة ١٣٢٣ م انشأوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المفرح (Collége du gai scavoir) وجعلوا جوائز الشعر ازهاراً مصوغة من الذهب والفضة تفرق على نوابغ الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها . وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلاد أوقفت احدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فاتسعت ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها واقبلوا على انتحال فنون الادب وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنساوي . ولم تزل هذه الجمعية الادبية زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية او (اكاديمية لعب الازهار) وتتألف من أربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين . وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين اشارة الى مايجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه . ويحتفلون في اليوم الثالث من الشهر مايو في كل سنة ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقيها . ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الاقحوان والياسمين والسوسن ومنها ماهو للشعر ومنها ماهو للنثر والخطب — ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوكو جائزة هذه الجمعية

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الافرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بما دون فيها فترجموا كتب ارسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية . ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلب . فهذا أساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة واقبلوا على درس أدب اللغة اللاتينية وأدب اللغة اليونانية وتبحروا

فيهما فانتقشت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان واتخذوا أشعارهم وروايا تهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأوًا كبيرًا على عهد لويس الرابع عشر (١٦٣٨ — ١٧١٥ م) الملقب بالكبير وأصلحوا فنون الادب وهذبوها وفتحت الماركيزة رامبويه دارها للادباء من سنة ١٦٣٥ الى سنة ١٦٦٥ م وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرتها منتدى أدبياً يحضره الشعراء والادباء والظرفاء ويتسامرون فيه وينشدون الاشعار ويقصون القصص والنوادر الادبية والعلمية . فكان هذا اول ناد في باريس خدم انتشار الادب والمعارف وساعد على ترقي اللغة وعلى اجتماع الرجال بالنساء في جلسة أدبية محترمة وتقرب الادباء من الامراء وأرباب الوجاهة بعد ان كانوا منحصرين لايحترفون بالادب الا لاستجداء المعروف وطلب الاحسان . وصارت السيدات الفرنساويات يقلدن الماركيزة في الاقبال على تحصيل الادب والمعارف وفتح أبوابهن للشعراء والكتبة . وأرادت بعض سيدات الاستانة في عصرنا تقليد الماركيزه في حماية الادب والمعارف فنجح عملهن مدة ثم أقفلت دورهن . وفي سنة ١٦٣٥ أسس الكاردينال ريشيليو الاكاديمية الفرنساوية من أربعين عضوًا وفوض اليهم جمع قاموس اللغة الفرنساوية ثم أسست أكاديمية الفنون والآداب واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية واشتغلت في الفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم أكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية واكاديمية الصنائع النفيسة وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الادباء بالزاق وفواتير وديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) وهو الذي احيا الفلسفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة الفرنساوية . وكان إماماً في الادب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب اليه وتسمى باسمه . ثم أنشأ الكساندر هاردي مرسحاً في باريس شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من اسبانيا لتقدم فنون الادب فيها لسبب مجاورتهم للعرب . وظهر من فحول الادباء بيرقورنيل (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لاوطانهم وبذلهم دونها المال

والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنيه في حرب لهم مع قبيلة كوریاس و بنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنيه وغضب من فرار ولده الثالث . فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو وحده مع ثلاثة من أعدائه » فأجابها الشيخ « أريد ان يموت » . ومن أئمة الادب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ — ١٦٩٩) وكان معاصراً لقورنيل ورقيباً له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية « استير » ورواية « أتالي » التي قال فيها فولتير بأنها أحسن ما ألفه العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية « تراجيدي » . ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بوالو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الادب . وموليير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بألفاظ لغوية وعبارة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بألفاظ سهلة . ولافونتين مؤلف الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنساوية وتحفظها للاطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم ظهر مونتسكيو مؤلف (اسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و (روح القوانين) و (الرسائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع بابا من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الا طرقهُ . وديدرو صاحب الانسكلوبيديا وجان جاك روسو الذي هيج الافكار بمؤلفاته وهيأ حدوث الانقلاب الكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفيرجيني وغيرها من القصص والسياحات

١٧ الطريقة المدرسية و الطريقة الرومانية في أدب الافرنج

وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان — كما لايخفى — هو مجموع ماحصلت الاجادة في تأليفه